الطيب صالح

موسم الهجرة إلى الشمال

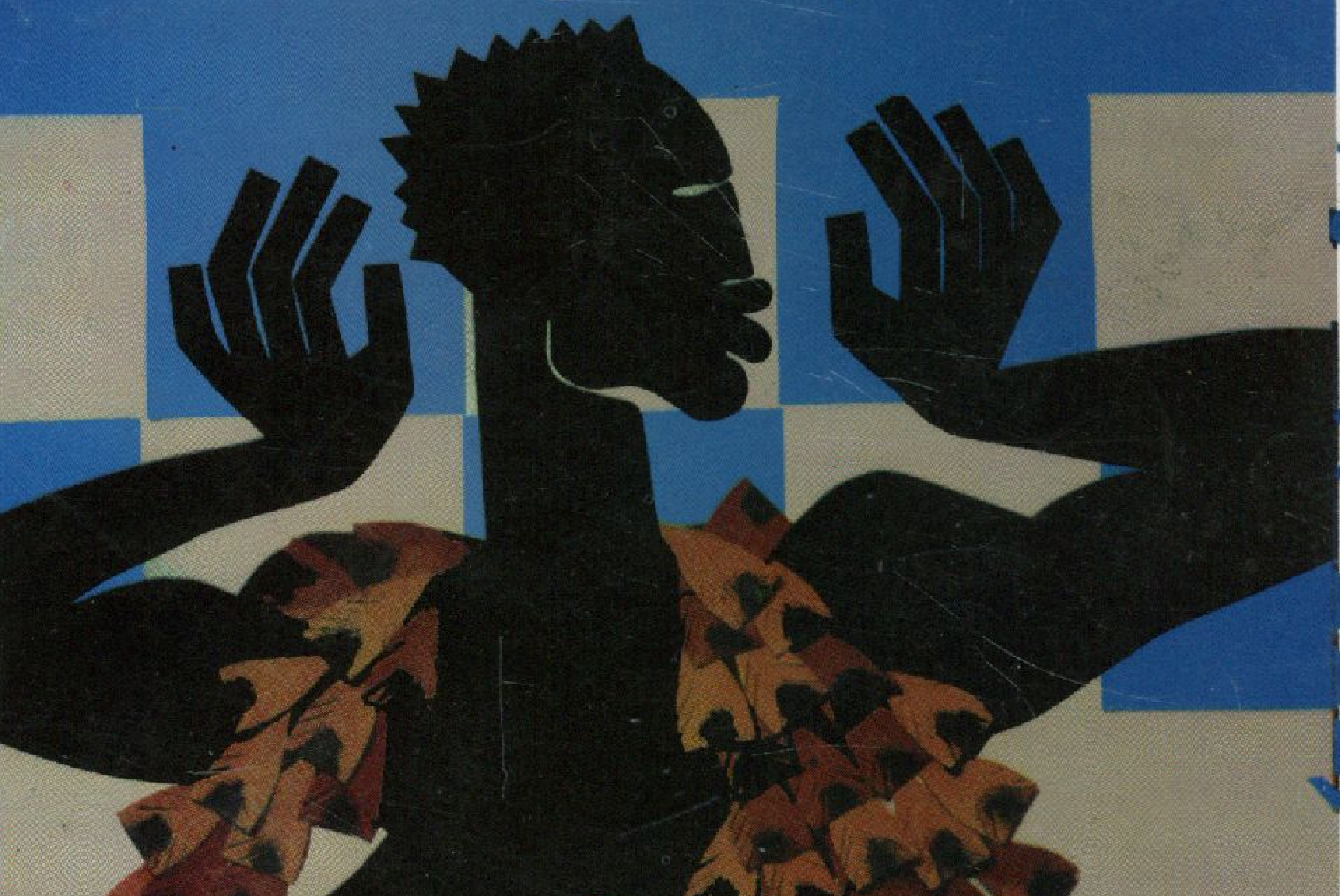

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

الرواية التى منعتها السلطات السودانية

89
S1

مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

موسم الهجرة إلى الشمال
الطيب صالح

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

موسم الهجرة إلى الشمال

موسم الهجرة إلى الشمال

الطيب صالح

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة في عالمنا المعاصر وهي الركيزة الأساسية في بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة في تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربي من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذي شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية في الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التي تطرحها مكتبة الأسرة في الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدي تتخاطفها وتنتظرها في منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضاري رائع يشهد للمواطن المصري بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة في الإسهام في ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم في عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

وللعام الثالث تواصل مكتبة الأسرة إشعاعها الثقافي حيث تقدم هذا العام ١٧٢ كتاباً في سبع سلاسل يصدر منها ما يقارب ١٨ مليون نسخة كتاب في أضخم مشروع ثقافي قومي تشهده مصر الحديثة..

د. سمير سرحان

الطيب صالح

موسم الهجرة إلى الشمال

عبقرية روائية جديدة

تقديم

رجاء النقاش

فى سنة ١٩٦٨، وقعت فى يدى مجلة أدبية لبنانية هى مجلة «حوار» التى كان يراس تحريرها الدكتور توفيق صايغ، وكانت مجلة محترمة، ولكنها للأسف كانت محاطة ببعض الشبهات السياسية، فقد كانت هذه المجلة تصدر عن «منظمة حرية الثقافة العالمية» وهى منظمة كان يقال إنها ممولة من جهاز المخابرات الأمريكية «سى. آى. إيه» ولم يكن لدى أحد دليل على ذلك، ولكنها كانت شائعات تملأ الأجواء الثقافية العربية، والمجلة نفسها كانت جيدة وذات مستوى فنى وفكرى رفيع، ولذلك كنت أحرص على قراءتها ومتابعتها، ومازلت احتفظ بمجموعة كبيرة من أعدادها حتى الان، ولأننى بطبيعتى لا أميل إلى التسرع فى اتهام أحد بدون دليل، فقد كنت أرى ان المشاركين فى هذه المجلة من الأدباء والكتاب والمفكرين، لا يعرفون شيئاً عن الاتهام السياسى الموجه إلى المجلة، وكنت على معرفة طيبة برئيس تحرير المجلة الدكتور توفيق صايغ، وهو من انبل الشخصيات

الأدبية التي عرفتها في حياتي، ولم يكن عندي شك في هذا الرجل، وفي رأيي انه لم يكن يعرف شيئاً عن مصدر تمويل المجلة، فقد كان هو وغيره يعتقدون ان التمويل مصدره «منظمة حرية الثقافة العالمية»، وهي منظمة كان مركزها في اوروبا وكانت تقدم الدعم والمساعدة للأنشطة الثقافية المختلفة ومنها إصدار المجلات ذات المستوى الفكرى الرفيع. ولم يكن في هذه المنظمة مايشير إلى أي علاقة لها مع المخابرات الأمريكية. وللأسف فقد اتضح بعد ذلك أن المنظمة كانت على علاقة وثيقة بالمخابرات الأمريكية وانها تستمد التمويل من هذه المنظمة، وذلك عندما أعلنت المخابرات الأمريكية بنفسها تقريراً عن نشاطها اعترفت فيه بذلك.

وبعد أن ظهرت الحقيقة لم يجد توفيق صايغ رئيس تحرير مجلة «حوار» مفرا من إغلاق مجلته الجميلة، وكانت هذه القضية سببا في احزان كثيرة ملأت نفس توفيق صايغ حتى قضت عليه بعد سنوات قليلة حيث مات مغتربا وهو يقوم بالتدريس في إحدى الجامعات الأجنبية.

في أحد أعداد مجلة «حوار» هذه وجدت رواية نشرتها المجلة على أكثر من نصف صفحات هذا العدد،

واسم الرواية هو «موسم الهجرة إلى الشمال»، لكاتب سوداني هو الطيب صالح، ولم أكن قد قرأت للطيب شيئاً، ولم اكن أعرف عنه في ذلك الوقت «١٩٦٨» أي معلومات من أى نوع.

لم أصدق عيني وأنا ألتهم سطور هذه الرواية وأنتقل بين شخصياتها النارية العنيفة وأتابع مواقفها الحارة المتفجرة وبناءها الفنى الأصيل الجديد على الرواية العربية. لم أتصور أننى أقرأ رواية كتبها فنان عربى معاصر، ولم أتصور أن هذه الرواية الناضجة الفذة فكرا وفنا هى عمله الأول. لقد أخذتنى الرواية بين سطورها في دوامة من السحر الفنى والفكرى، وصعدت بى إلى مرتفعات عالية من الخيال الفنى الروائى العظيم، وأطربتنى طربا حقيقيا بما فيها من غزارة شعرية رائعة. ولم أكد أصل إلى نهاية الرواية حتى تيقنت أننى - بلا أدنى مبالغة - أمام عبقرية جديدة فى ميدان الرواية العربية، وهى عبقرية تولد كما يولد الفجر الجديد المشرق، وكما تولد الشمس الأفريقية الصريحة الناصعة التي لا يحجبها غيم أو ضباب وكتبت عن هذه الرواية فى مجلة «المصور» وسجلت فيما كتبته إحساسي بميلاد هذه العبقرية العربية الروائية الجديدة التى لاشك فيها. ثم

قمت بعد ذلك وبالتحديد سنة ١٩٦٩ بنشر أول طبعة للرواية فى كتاب، وذلك فى سلسلة روايات الهلال عندما كنت أتشرف برئاسة تحريرها فى تلك الوقت. ونفدت نسخ الرواية فى أسبوع واحد، ونجحت نجاحا غير معهود، وأصبح اسم الطيب صالح بفضل هذه الرواية من أكبر الأسماء وأشهرها فى أدبنا العربى المعاصر.

ورواية «موسم الهجرة الى الشمال» تعالج المشكلة الرئيسية التى عالجها من قبل عدد من كبار الكتاب العرب، إنها نفس المشكلة التى عبر عنها توفيق الحكيم فى روايته «عصفور من الشرق» وعبر عنها بعد ذلك يحيى حقى فى روايته «قنديل أم هاشم» وعبر عنها الروائى اللبنانى سهيل ادريس فى روايته «الحى اللاتينى».. واقصد بهذه المشكلة: مشكلة الصراع بين «الشرق والغرب» وكيف تواجه الشعوب الجديدة هذه المشكلة.. كيف تعالجها وتتصرف فيها؟.. هل تترك هذه الشعوب ماضيها كله وتستسلم للحضارة الغربية وتذوب فيها وتقلدها تقليدا كاملا؟ هل تعود هذه الشعوب الى ماضيها وترفض الحضارة الغربية وتعطيها ظهرها وتنكرها انكارا لا رجعة فيه؟ هل تتخذ موقفا ثالثا يختلف عن الموقفين السابقين... وما

هو هذا الموقف الجديد؟... تلك هي المشكلة التي تعالجها رواية الطيب صالح.

وقبل ان نتعرض لمناقشة الرواية، وما تقدمه الينا فكريا وفنيا، لابد لنا أن نلاحظ ملاحظة اولية، فهذه الملاحظة بالذات تفسر لنا ما فى الرواية من عنف ليس موجودا فى الروايات السابقة التى تناولت نفس الموضوع، فمشكلة الشرق والغرب كما ظهرت فى الروايات السابقة لا ترتبط بتجربة مريرة مثل تلك التى يعبر عنها الطيب صالح، ذلك أن الشرق عند هذا الفنان هو شرق افريقى «أسود اللون» ومشكلة البشرة السوداء هذه تعطى للتجربة الانسانية عمقا وعنفا، بل وتمزجها بنوع خاص من المرارة. إن توفيق الحكيم أو يحيى حقى أو سهيل ادريس أو غيرهم من الأدباء الذين عبروا عن مشكلة الصراع بين الشرق والغرب، كانوا جميعا من آسيا أو من شمال أفريقيا. وهذا معناه ببساطة أن مشكلة اللون لم تكن عندهم عنصرا من العناصر المشتركة فى الصراع الكبير. ولكن هاهو الطيب صالح يصور هذه المشكلة ويعبر عنها من خلال انسان افريقى ذى بشرة سوداء، يذهب الى لندن ويصطدم بالحضارة الغربية اصطداما عنيفا مدويا من نوع غريب.

وعنصر اللون هنا له اهميته الكبرى، فالبشرة السوداء هى التى انصب عليها غضب الغربيين وحقدهم المرير، وهى التى تفنن الغرب فى تجريحها انسانيا قبل أن يكون هذا التجريح سياسيا أو اقتصاديا أو ثقافيا. ان الانسان الأسود قد عاش قرونا من التعذيب والاهانة على يد الغرب، وتركت هذه القرون فى النفس الافريقية جروحا لا تندمل بسهولة. ومن هنا كانت حرارة المأساة كما رسمها الطيب صالح فى روايته الفذة. انه يصور صدام أقدار متضادة الى اقصى حدود التضاد. فمصطفى سعيد بطل الرواية، لا ينتقل من السيدة زينب الى لندن، أو من السيدة الى باريس، أو من بيروت الى باريس، كما نجد فى الروايات العربية التى صورت نفس المشكلة، ان هذا البطل الروائى الجديد ينتقل من افريقيا السوداء الى لندن. والحوادث الرئيسية فى الرواية تجرى فى أوائل هذا القرن حيث كانت افريقيا تغوص فى ظلم وظلام لاحد لهما. على أن هذا كله لا يعنى ان رواية «موسم الهجرة الى الشمال» قد ركزت تركيزا حادا على مشكلة اللون... على العكس تماما نجد أن الطيب صالح يمس هذه المشكلة برقة ولطف ورشاقة، وهو يمسها من بعيد جدا، حتى لا نكاد نلتقى بها الا بين السطور، ولكن هذا العنصر اللونى مع ذلك يفسر لنا عنف الرواية وحدتها

بصورة لا نجدها فى اى رواية عربية اخرى عالجت نفس الموضوع.. ان الجرح الانسانى الذى ينزف فى هذه الرواية العظيمة هو اكثر عمقا من اى جرح آخر.... انه جرح الانسان الافريقى الأسود.

واول ما يلفت النظر بعد ذلك فى هذه الرواية، هو ما يمكن أن نسميه بالموقف الحضارى للكاتب الفنان، ولا يستطيع ان يصل الى هذا الموقف الا فنان ذو عقل واسع وقلب كبير و ثقافة عالية، لأن صغار الفنانين ليس لهم موقف حضارى على الاطلاق.... ورواية «الطيب» تعكس موقفا محددا واضحا، لقد سافر «مصطفى سعيد» بطل الرواية الى لندن، ووصل هناك الى أعلى درجات العلم، واصبح دكتورا لامعا فى الاقتصاد، وان كانت ثقافته قد امتدت واتسعت حتى شملت كثيرا من ألوان الأدب والفن والفلسفة وأصبح «مصطفى سعيد» مدرسا فى إحدى جامعات انجلترا ومؤلفا مرموقا. ولكنه فى حياته الخاصة ارتبط بعلاقات وثيقة مع أربع فتيات انجليزيات، وانتهت هذه العلاقات جميعا نهايات حادة دامية. وهى نهايات تشبه طبيعة «مصطفى سعيد» نفسه، وتشبه عواطفه الساخنة ومزاجه الحاد كالسكين.

ان هذا البطل الروائى الوافد من افريقيا، يتعثر فى أزمات حادة مريرة، ولا حل له فى آخر الأمر كما تقول

رواية الطيب صالح الا بان يعود الى قرية فى قلب السودان ليشترى بضعة افدنة هناك، ويعمل فيها بنفسه ويتزوج بنتا من بنات القرية السودانية، ويواصل حياته الجديدة بطريقة منتجة هادئة، لم يعرفها من قبل فى انجلترا حيث عاش هناك حياة عاصفة مؤلمة.

والحل الذى يراه الطيب صالح فى روايته امام بطله المضطرب المعذب هو أن يعود الى أصله ومنبعه ليبدأ من جديد هناك. فهذه هى البداية الصحيحة والسليمة. لن يجد نفسه فى لندن مهما أخذ من عملها وثقافتها، ومهما طاردته نساؤها وتعلقن به تعلقا جسديا شهوانيا عنيفا، لن يجد الطمانينة أبدا الا اذا عاد الى النبع، وألقى وراء ظهره بقشور الثقافة الغربية، وأبقى على جوهر هذه الثقافة ثم مزج هذا الجوهر بواقع بلاده... هنا فقط سوف يصبح انسانا منتجا... انسانا فعالا له دور حقيقى فى الحياة.

وهذا هو نفس الحل الذى ارتاه من قبل توفيق الحكيم لبطله محسن، فقد عاد به الى الشرق ليبدأ البداية الصحيحة. وهذا ما رآه يحيى حقى فى «قنديل أم هاشم» لبطله «اسماعيل»... ان اسماعيل بكل علمه لا يمكن ان يقدم لوطنه شيئا الا اذا بدأ من السيدة زينب

وتزوج من فاطمة الزهراء ابنة هذا الحى الشعبى... فالذين يتعالون على واقعهم الأصلى، أو ينفصلون عنه لا يمكن لهم أبدا أن يؤثروا على هذا الواقع أو يغيروا فيه أى شىء، ان مثل هذا الواقع لن يهضمهم ولن يعترف بهم، بل سوف يرفضهم تماما مثلما يرفض اى جسم غريب وشاذ، لابد ان تكون البداية من الواقع، من النبع الأصلى، من القرية، من السيدة زينب، من الناس الذين بدأ بينهم الانسان وخرج منهم.

على ان هذه الرؤية الحضارية عند الطيب صالح ترتبط أشد الارتباط برؤية انسانية اخرى، استطاع الطيب صالح أن يصورها ويجسدها لنا فى روايته بصورة عميقة تسمو الى درجة عالية من الشفافية والمقدرة الفنية الخلاقة المبدعة.

وهذه الرؤية الانسانية تتضح أمامنا بعد تحليل الرواية وتحليل علاقاتها المختلفة.

فمصطفى سعيد بطل الرواية يرتبط فى انجلترا باربع علاقات نسائية، وتنتهى هذه العلاقات بانتحار ثلاث فتيات، كما تنتهى العلاقة الرابعة بالزواج ثم بجريمة قتل قام بها مصطفى سعيد... لقد قتل زوجته فى سريرها، وبعد محاكمته فى لندن، والنظر فى ظروف القضية، ثم الحكم عليه بسبع سنوات، قضاها

فى أحد السجون، ثم عاد الى احدى القرى السودانية واشترى ارضا عمل فيها بنفسه وتزوج من احدى بنات القرية وهى حسنة بنت محمود وأنجب منها ولدين.

والعلاقة بين مصطفى سعيد والفتيات الانجليزيات الثلاث لم تتجاوز العلاقة الجسدية، لم يكن هناك بين هذه العلاقات علاقة حب حقيقية، بل كانت كلها علاقة شهوة جامحة، فالفتيات الانجليزيات يرين فى مصطفى سعيد مظهرا للقوة البدائية الوافدة من افريقيا. انه بالنسبة اليهن ليس انسانا يستحق علاقة عاطفية كاملة بكل جوانبها الروحية والمادية معا، فهو كائن غريب، يحمل رائحة الشرق النافذة، وهو حيوان افريقى يستحق ان تلهو به هذه الفتيات ويستمتعن به فقط.

ان علاقة مصطفى سعيد بهؤلاء الفتيات ليست علاقة عاطفية انسانية صحيحة قائمة على التوازن والمساواة، بل هى علاقات حسية قائمة على الاستغلال، وهذا النوع من العلاقات يذكرنا ولاشك بالعلاقات بين الاستعمار والبلاد المحتلة، فالاستعمار يستغل بلدا من البلدان ويستنزفها بقسوة لكى يستمتع بما فيها من ثروات وامكانيات، ولو اننا لاحظنا تمسك الاستعماريين ببلدان افريقيا على سبيل

المثال لوجدنا ان هذا التمسك فيه رائحة خارجية سطحية من المحبة والعشق بل والهوس العاطفى، لقد كان الفرنسيون يتركون الجزائر بعد استقلالها وهم يذرفون الدموع الغزيرة، وفى جنوب افريقيا نجد ان الأوروبيين لا يريدون أن يتركوا الأرض الأفريقية، انهم يتمسكون بها كما يتمسك العشاق بشيء عزيز عليهم... ولكنهم فى حقيقتهم ليسوا عشاقا، وانما هم يستغلون ويستثمرون الأرض والناس.

هكذا كانت فتيات لندن يجدن في مصطفى سعيد صحة وقوة واثارة لخيالهن الجامح حول افريقيا وما فيها من عنف وحيوية، ومن هنا أقبلت عليه الفتيات كالفراشات، أو إن أردت صورة أقبح وأصدق: فانهن قد اقبلن عليه كما يقبل الذباب على قطعة من الحلوى.

أكان من الممكن أن يحب مصطفى سعيد مثل هذه الفتيات؟ كلا بالطبع. ولا واحدةً منهن اثارت فيه عاطفة سليمة. وقد كان هو نفسه مشحونا - من الداخل - ضد أوروبا، وضد التشويه الانساني الذى حملته اوروبا الى أفريقيا والافريقيين فى نفس الوقت. ولذا كانت نظرته الى الأوروبيات فيها نوع من الرغبة الانتقامية، بينما كانت نظرة الأوروبيات اليه نظرة غير انسانية،

ومن هنا اقتصرت هذه العلاقات كلها على الجانب الجسدى، ثم سئم منهن في النهاية فتركهن وانتهى بهن الأمر إلى الانتحار، لا بسبب عاطفة صادقة، ولكن بسبب عادة جسدية عنيفة ضاعت وضاع معها كل ما حولها من خيال جامح، ثم جاءت علاقة مصطفى سعيد بالفتاة الانجليزية التى تزوجها. ظل فى البداية يطاردها وترفضه رفضا كاملا، وأخيراً طلبت منه أن يتزوجها. وتم الزواج بالفعل، ولكنها تعودت على أن تثيره بشتى الوسائل والأساليب العنيفة دون أن تسمح له بالاقتراب منها، إنها تشتهيه وتحتقره فى نفس الوقت: تريده وتنكره بل وتنكر على نفسها أنها تريده. وظلت هكذا تعذبه وتعمل على تهديم أعصابه بلا رحمة حتى هددها بالقتل فلم تعبا بالتهديد. وجاء يوم قرر فيه أن يقتلها بالفعل، فاستسلمت للقتل كما تستسلم لأى علاقة جسدية تريدها فى هوس مجنون. وكان مقتل هذه الفتاة عنيفا غريبا... وكانت هى نفسها تشتهى هذا القتل وتطلبه وتتمناه، لأنها كانت تجد فى مصطفى سعيد مثالا مجسدا للعنف الافريقى، وكان لديها ولا شك الكثير من «السادية» أو الرغبة فى تعذيب الآخرين، كما كان لديها أيضا الكثير من «الماسوشية» أى الرغبة فى تعذيب النفس.

وهكذا كانت هذه الزوجة الانجليزية هى الأخرى تحمل نموذجا معقدا للحب المريض الشاذ، لقد كان الجنس بشتى صورة فى علاقاته مع الأوروبيات مطلوبا لذاته فالجنس أولا وأخيرا هو الهدف، على شرط ان يتحقق الجنس فى إطاره الافريقى الجامح المثير للخيال ومن هنا كان الجنس فى تجربة مصطفى سعيد مع الفتيات الانجليزيات مجردا من اى معنى انسانى، فليس وراء هذه العلاقات كلها اى رغبة فى بناء اسرةولا اى رغبة فى انجاب أولاد ولا اى رغبة فى مواصلة حياة منتجة.. الجنس للجنس، هذا هو شعار تلك الفتيات الانجليزيات مع هذا الفتى الافريقى، كل ذلك رغم ما كانت بعض الفتيات تقمن به من محاولات لتغطية هذه الرغبة المجنونة، باساليب مكشوفة من الحديث عن الفن والشرق وافريقيا.

وهكذا فشلت علاقاته النسائية فى أوروبا بسبب انعدام المعنى الانسانى وانتهت بالجريمة والسجن.

بقى فى حياة مصطفى سعيد بطل الرواية حبان ناجحان: اما الحب الأول فهو حب «اليزابيث» له وهو نوع من عاطفة الأمومة. إن هذه السيدة الانجليزية كانت تعيش فى القاهرة مع زوجها المستشرق الذى تعلم اللغة العربية واعتنق الاسلام وقضى عمره كله

بحثا عن المخطوطات العربية ودراستها.. ثم مات ودفن فى القاهرة التى أحبها وعاش فيها أجمل سنوات عمره. كانت اليزابيث، زوجة المستشرق بمثابة الأم الروحية لبطل الرواية مصطفى سعيد. لقد احبته كجزء من حبها للشرق وفهمها له، واحبته لأنها أحسست بامتيازه وذكائه وصفاته الانسانية الأخرى، ولم تفكر فيه أبدا على أنه «لعبة افريقية» مثيرة، لذلك كان حبها ناجحا، وظل مشتعلا حتى النهاية، وان طغت عليه جوانب الأمومة بسبب فارق السن.

ومن الواضح أن «اليزابيث» قد تدربت كثيرا حتى استطاعت أن تصل الى هذا المستوى من العاطفة النقية الصافية.. لقد عاشت فى القاهرة طويلا مع زوجها، وتعلمت العربية وعاشرت الناس فى الشرق واحبتهم، لقد اكتشفت الشرق من جانبه الانسانى لا من جانبه الجسدي والمادى. ولذلك أحبت مصطفى سعيد وجدت سعادة غامرة فى هذا الحب، ولم تطلب من مصطفى سعيد شيئا، بل كانت تساعده كلما احتاج الى المساعدة، ان لذتها الكبرى هى فى هذا الحب الصافى نفسه، وفى اكتشافها لروح الشرق الجميل: بتراثه وتاريخه وشمسه وناسه، ولقد نظرت اليزابيث الى مصطفى سعيد فى ضوء رؤيتها للشرق كله.

أما الحب الثانى الحقيقى الناجح، فقد التقى به مصطفى سعيد بعد أن خرج من سجون لندن وعاد إلى السودان، واختار احدى القرى ليقيم فيها، هناك تزوج فتاته السودانية «حسنة بنت محمود» وعاش معها سعيداً كل السعادة حتى مات غريقاً فى إحدى الفيضانات التى التهمت بعض أهل القرية وكان بينهم مصطفى سعيد.

وهذا الحب هو وحده الذى أنجب فيه مصطفى سعيد ولدين .. هنا «الجنس» له دور فى بناء الحياة، والحب مبنى على الاقتناع والمساواة والرغبة الصادقة فى إقامة علاقة انسانية صحيحة .. «ومصطفى سعيد» فى تلك القرية السودانية عاشق حقيقى ومعشوق حقيقى معاً، وذلك بسبب صفاته الأصيلة فيه، مثل ذكائه وعمق شخصيته، وحبه للقرية، وقدرته على العمل والانتاج. انه ليس كما كان فى أوروبا : حيوانا عنيفاً متوحشاً، تجرى وراءه الفتيات لغرابته وشذوذه، انه هنا انسان طبيعى، والحب فى هذه القرية السودانية بسيط وصادق وأصيل. ومصطفى سعيد لم ينجب إلا من زوجته السودانية، وليست هذه الفكرة فى الرواية تعبيراً عن اى تعصب قومى، ولكنها كانت فكرة تكشف عن معنى انسانى بالدرجة الأولى فالزوجة السودانية هى الحب الوحيد الحقيقى، ولذلك فهى

ليست عقيماً مثلما كان الأمر مع الفتيات الأوروبيات وعواطفهن الغربية الشاذة.

وبعد موت مصطفى سعيد، رفضت زوجته السودانية «حسنة بنت محمود» أن تتزوج من «ود الريس» وهو عجوز سوداني من ابناء القرية، لقد كانت «حسنة» تفضل الموت على ان تتزوج من «ود الريس». لقد ذاقت عذوبة الحياة في ظل مصطفى سعيد ذلك الافريقي الذي صقلته الحضارة والتجربة ثم عاد في نهاية المطاف إلى ارضه، ليبدأ منها بداية حقيقية، لقد وجدت فيه وهي البنت الافريقية البسيطة شيئاً جديداً: فهو منها ولكنه غريب عنها وجديد عليها .... ولذلك كله احبته بعد ان شد عينيها إلى عالم اوسع واعمق من عالمها البسيط.

وما اشبه حسنة بنت محمود بالسودان نفسه، بل ما اشبهها بمصر وبكل بلد شرقية متطلعة إلى الجديد ... تريد أن تخطو إلى الامام دون أن تنزع جذورها من الأرض.

وكانت «حسنة» بعد أن مات زوجها مصطفى سعيد تريد أن تتزوج شخصاً آخر هو «الراوي» الذي يقدم لنا القصة بلسانه. وهذا «الراوي» هو في الحقيقة الامتداد الوحيد المقبول لمصطفى سعيد ... سافر إلى أوربا وعاد إلى وطنه يحمل مشعلاً هادئاً وصادقاً،

ولذلك جعله مصطفى وصياً على أولاده وثروته وزوجته واسراره جميعاً.

ولكنهم فرضوا على «حسنة» أن تتزوج من العجوز «ود الريس» أى أن تعود إلى الماضى التقليدى الجامد فكانت النتيجة أن قتلته وقتلت نفسها. ولذلك تكون «حسنة» قد قتلت التقاليد القديمة التى تعودت أن تجعل من المراة شيئاً من المتاع المادى وليست «انسانة» ذات عاطفة خاصة مستقلة . إنها قتلت رمزاً من رموز الماضى بتقاليده ونظرته الخاطئة إلى الحياة، وأحدثت بهذه «الجريمة» صدمة مفجعة لمجتمع قريتها الأفريقى الهادئ البسيط ... لقد استيقظ هذا المجتمع فجاة على هذه الجريمة الحادة القاسية. وفى هذه الجريمة سقطت حسنة شهيدة حبها، وشهيدة حرصها على الا تتراجع عن العالم الجديد الجميل الذى خلقه لها زوجها الأول مصطفى سعيد.

وما أشبه جريمة «حسنة» بجريمة مصطفي نفسه في لندن. «جريمة حسنة» هي ثورة ضد التقاليد التي تحول المراة الي لعبة. وجريمة مصطفي سعيد هي قتل للوجدان الأوروبي المعقد، والذي يعلن كراهيته واحتقاره لافريقيا ثم يتمسك بها ويقبض عليها باصابعه وينشب أظافره فيها حتي لا تضيع... فموقف أوروبا من افريقيا هو تظافر بالكره يقابله حرص علي

افريقيا وتمسك مستبد وعنيف بها. وهذا هو نفسه موقف الزوجة الانجليزية من زوجها الافريقي مصطفي سعيد.. كانت تبدي له كرها وتمنعا واحتقارا، وهي في الحقيقة تريده لتعتصره وتحقق متعتها ثم تعامله بعد ذلك كالكلب.

جريمة «حسنة هي قتل للوجدان الافريقي بتقاليده القديمة بحثا عن وجدان افريقي جديد، وجريمة مصطفي سعيد قتل للوجدان الأوروبي باستبداده وعنفه ورغبته في السيطرة بحثا عن وجدان اوروبي جديد خال من التعقيد والمرض.

كل شيء في هذه الرواية الكبيرة له معناه: الحب والجنس والجريمة. بقي أن نلاحظ كيف مات مصطفي سعيد في الرواية، لقد مات غريقا في ماء النهر دون أن تطفو جثته أو تظهر بعد ذلك، وهكذا اختارت أنامل الفنان الموهوب لبطله أن يذوب في النيل رمز الأرض والأصل وأفريقيا... رمز المنبع الكبير والبداية الصحيحة.

لقد مات مصطفي سعيد ميتة كبيرة لها مغزاها، كما كان كل شيء في حياته له مغزاه... ولعل النهر نفسه أن يتطهر بالنور الذي وصل اليه مصطفي سعيد بعد تجارب شاقة وبعد اصطدام حاد وامتزاج عنيف بالحضارة الأوروبية. ولعل مصطفي سعيد أن يتطهر

هو ايضا من آثامه الفكرية والجسدية في هذا النهر المقدس لأنه مصدر الحياة التي تدب علي شطآنه!

ولعل مصطفي سعيد أن يبعث ويعود الي الحياة بعد امتزاجه بالنهر... ليكون نورا جديدا ينتشر في الأرض الافريقية ويبدد الظلام ويهدي السائرين الحائرين الي الطريق.

واخيرا ماذا نجد في هذه الرواية من القيم الفنية؟... نجد فيها كل شيء يحتاج اليه الفن العظيم. فعبارتها الجميلة، تعتمد علي لغة عربية في غاية الصفاء والأناقة والشاعرية. انها لغة ناصعة مصقولة مغسولة في نهر من الفن المقدس. لغة غنية بالاضواء والظلال، مليئة بالشحنات العاطفية، بعيدة عن التبذير والثرثرة. وموقف الطيب صالح من الحوار في هذه الرواية هو موقف نجيب محفوظ. انه يستعين بروح اللهجة العامية ويحافظ علي الصياغة الفصيحة البسيطة، لذلك تشعر وأنت تقرأ الرواية بالروح الشعبية الأصيلة، دون أن تضيع في غابات لهجة محلية صعبة معقدة.

ففى حديث علي لسان محجوب احد شخصيات الرواية يقول «للراوي» عندما حزن حزنا عميقا لإنتحار حسنة بنت محمود:

«يا للعجب، يابني آدم أصبح لنفسك، عد لصوابك،

اصبحت عاشقا آخر الزمن. جننت مثل ود الريس. المدارس والتعليم رهفت قلبك، تبكي كالنساء، اما والله عجايب. حب ومرض وبكاء، انها لم تكن تساوي مليما، لولا الحياء ما كانت تساهل الدفن، كنا نرميها في البحر، ونترك جثتها للصقور».

وهذا نموذج للحوار الفصيح الذي يحمل الكثير من الروح الشعبية، بل وحتي من الصياغات الشعبية بعد قليل من الصقل والتعديل. وفي هذه الرواية قدرة خارقة علي الوصف، فالقرية الإفريقية مرسومة في هذه الرواية بريشة عبقرية، انك تحس بها لوحة حية نادرة بكل ما فيها من بشر وحيوانات ونباتات وليال مقمرة وليال مظلمة، ان هذا كله يتحرك ويصرخ من فرط حيويته وحرارته وفي الرواية شاعرية شاعر كبير، أدواته الفنية في منتهي الطواعية لرؤاه الفنية الفياضة.

ولنقف أمام بعض النماذج والمقاطع المختلفة من هذه الرواية، فسوف نري فيها قدرة الكاتب الفنان علي الوصف، وسوف نلمس بين السطور شاعرية أصيلة نادرة وصياغة فنية للأسلوب العربي.. لاشك أنها صياغة منفردة بشخصيتها الخاصة.. وهي صياغة قادرة علي ان تمنح صاحبها مكانا بارزا بين كبار أصحاب الأساليب العربية اللامعين.

يقول الطبيب في وصفة للصحراء :

«هذه الأرض لا تنبت إلا الأنبياء.

هذا القحط لا تداويه إلا السماء . هذه ارض الياس والشعر».

ويقول الطبيب عن الصحراء ايضا :

تحت هذه السماء الرحيمة الجميلة احس اننا جميعا اخوة. الذي يسكر والذي يصلي والذي يسرق والذي يزني والذي يقاتل والذي يقتل. الينبوع نفسه. ولا احد يعلم ماذا يدور في خلد الإله. لعله لا يبالي، لعله ليس غاضبا. في ليلة مثل هذه تحس أنك تستطيع ان ترقي إلي السماء علي سلم من الحبال. هذه أرض الشعر والممكن وابنتي اسمها آمال. سنهدم وسنبني وستخضع الشمس ذاتها لإرادتنا وسنهزم الفقر باية وسيلة. السواق الذي كان صامتا طول اليوم قد ارتفعت عقيرته بالغناء، صوت عذب سلسبيل لا تحسب انه صوته.. يغني لسيارته كما كان الشعراء في الزمن القديم يغنون لجمالهم».

وعندما كان مصطفى سعيد بطل الرواية يحاكم فى لندن وقف يقول، وما أروع ما يقوله الفنان على لسان بطله :

«أننى أسمع فى هذه المحكمة صليل سيوف الرومان فى قرطاجه، وقعقعة سنابك خيل«اللنبى» وهى تطأ

ارض القدس. البواخر مخرت عرض النيل مرة تحمل المدافع لا الخبز وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود، وقد أنشاوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم. انهم جلبوا الينا جرثومة العنف الاوروبى الاكبر الذى لم يشهد العالم مثيله من قبل، جرثومة مرض فتاك أصابهم اكثر من الف عام: نعم يا سادتى اننى جئتكم غازيا فى عقر داركم. قطرة من السم الذى حقنتم به شرايين التاريخ. انه لست عطيلا. عطيل كان اكذوبة».

وعلى لسان محجوب احد شخصيات الرواية يقول عن البطل مصطفى سعيد :

«تريد أن تعرف حقيقة مصطفى سعيد؟ مصطفى سعيد هو فى الحقيقة نبى الله الخضر يظهر فجاة ويغيب فجاة. والكنوز التى فى هذه الغرفة هى كنوز الملك سليمان حملها الجان الى هنا. وأنت عندك مفتاح. افتح يا سمسم ودعنا نفرق الذهب والجواهر على الناس».

والنموذج الأخير الذى أود أن أقدمه هنا هو وصف الراوى لجده العجوز الذى يقترب من المائة:

«يا للغرابة يا للسخرية. الانسان لمجرد انه خلق عند خط الاستواء، بعض المجانين يعتبرونه عبدا وبعضهم

يعتبرونه الها. اين الاعتدال؟ اين الاستواء؟.. وجدى بصوته النحيل وضحكته الخبيثة حين يكون على سجيته اين وضعه فى هذا البساط الأحمدى؟ هل هو حقيقة كما ازعم انا وكما يبدو هو؟ هل هو فوق هذه الفوضى؟ لا أدرى. ولكنه بقى على اى حال رغم الأوبئة وفساد الحكام وقسوة الطبيعة، وانا موقن ان الموت حين يبرز له سيبتسم هو فى وجه الموت».

هذه النماذج كلها تكشف لنا ما فى حوار الطيب صالح وأسلوبه وتصويره للشخصيات والمواقف من شاعرية وعذوبة وخصومة وغنى فنى وفكرى عظيم.

وفى الرواية فوق ذلك كله امتزاج خصب أصيل بين فضائل الرواية التقليدية مثل التصوير الدقيق العميق للشخصيات وخلق الحكاية الممتعة التى تشد الانفاس حتى النهاية، وفضائل الرواية الحديثة التى تعتمد على تصوير الأحلام والعالم الداخلى للانسان. لقد استخدم الطيب صالح فى روايته جميع الأساليب المناسبة فى مزيج فنى سليم وخصب وأصيل. ولذلك جاءت روايته فى النهاية رواية عصرية من ناحية، ولكنها من ناحية ثانية تفوح بالأصالة والارتباط بالتراث الروائى العربى والعالمى معا. انها بعبارات اخرى «رواية عربية متطورة» تمثل خطوة جديدة فى

ادبنا الروائى، بل وتفتح فى تاريخ الرواية العربية صفحة جديدة مشرقة.. انها علامة من علامات الطريق فى ادبنا العربى المعاصر.

وقد تصطدم هذه الرواية فى النهاية ببعض البيئات الأدبية المحافظة، وذلك بسبب بعض الفقرات التى تتحدث عن الجنس، ورغم أن الرواية سوف تحتفظ بجانب كبير من قيمتها لو استغنت عن هذه الفقرات، الا انها بالتأكيد سوف تفقد شيئا جوهريا.. سوف تفقد ما فيها من صدق وحرارة، وسوف تفقد ما فيها من طعم لاذع لاسع مر، ان هذه الرواية رغم صراحتها وجراتها قد عالجت الجنس كجزء اساسى من بناء الرواية ونبضها الفنى والانسانى، وهذا ما يعطى لهذه الرواية الفذة كل الحق فى أن تبقى نصا كاملا لا يتصرف فيه أحد حتى ولا كاتبه نفسه.

ان رواية «موسم الهجرة الى الشمال» تعتبر من انضج نماذج الرواية العربية، بل والرواية العالمية أيضا فى معالجتها لموضوع الجنس. انها تواجه هذا الموضوع بجراة فنية «بدائية» ولكنها شديدة الصدق والاصالة، فالرواية رغم جراتها لا تستسلم ابدا لموضوع الجنس. ان الجنس فى الرواية عنصر من عناصرها، يخدم العمل الفنى، وتظهر المواقف

الجنسية طبيعية فى موضعها من الرواية وفي تعبيرها عن ضرورة فنية وموضوعية، ومن واجب حياتنا الأدبية أن تقابل هذا الموقف بجراة وشجاعة، ولا يجوز أن نخفي رؤوسنا فى الرمال.. فنجعل حراما على أدبائنا ما ليس حراما على غيرهم، ونمنعهم من أن يقتربوا من موضوع الجنس اذا دعاهم إلى ذلك فنهم وفكرهم وصدقهم مع الفن والحياة والواجب ـ هنا ـ أن تتحقق حريتنا الفكرية والفنية بمواجهة الحقيقة لا بالهروب منها، ولو استطاعت حياتنا الفنية أن تهضم الفقرات الجنسية من رواية الطيب صالح بدون مضض أو امتعاض، فانها بذلك تكون قد خطت مائة سنة ادبية الى الأمام... وانى لاتمنى أن يحدث هذا تماما.

رجاء النقاش

موسم الهجرة إلى الشمال

الطيب صالح

(١)

عدت الى أهلى يا سادتى بعد غيبة طويلة ، سبعة أعوام على وجه التحديد ، كنت خلالها أتعلم فى أوربا . تعلمت الكثير ، وغاب عنى الكثير ، لكن تلك قصة اخرى . المهم اننى عدت ، وبى شوق عظيم الى أهلى فى تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل . سبعة أعوام وانا أحن اليهم واحلم بهم ، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة ان وجدتنى حقيقة قائما بينهم . فرحوا بى ، وضجوا حولى ، ولم يمض وقت طويل حتى احسست كأن ثلجا يذوب فى دخيلتى ، فكأننى مقرور طلعت عليه الشمس . ذاك دفء الحياة فى العشيرة ، فقدته زمانا فى بلاد « تموت من البرد حيتانها » . تعودت أذناى أصواتهم ، وألفت عيناى أشكالهم . من كثرة ما فكرت فيهم فى الغيبة ، قام بينى وبينهم شيء مثل الضباب ، اول وهلة رأيتهم . لكن الضباب راح ، واستيقظت ثانى يوم وصولى ، فى فراشى الذى أعرفه ، فى الغرفة التى تشهد جدرانها على ترهات حياتى فى طفولتها ومطلع شبابها . وأرخيت أذنى للريح • ذاك لعمرى صوت أعرفه ، له فى بلدنا وشوشة مرحة . صوت الريح وهى تمر بالنخل غيره وهى تمر بحقول القمح . وسمعت هديل القمرى ، ونظرت خلال النافذة الى النخلة القائمة فى فناء دارنا ، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير . أنظر الى جذعها القوى المعتدل ، والى عروقها الضاربة فى الارض ، والى الجريد الأخضر المتهدل فوق هامتها ، فاحس بالطمانينة . احس أننى لست ريشة فى مهب الريح ، ولكنى مثل تلك النخلة ، مخلوق له اصل ،

له جذور ، له هدف .

وجاءت أمي تحمل الشاي . وفرغ أبي من صلاته وأوراده فجاء . وجاءت أختي ، وجاء أخواي ، وجلسنا نشرب الشاي ونتحدث ، شأننا منذ تفتحت عيناي على الحياة . نعم ، الحياة طيبة ، والدنيا كحالها لم تتغير

فجأة تذكرت وجها رأيته بين المستقبلين لم أعرفه . سألتهم عنه ، ووصفته لهم . رجل ربعة القامة ، في نحو الخمسين أو يزيد قليلا ، شعر رأسه كثيف مبيض ، ليست له لحية ، وشاربه أصغر قليلا من شوارب الرجال في البلد . رجل وسيم

وقال أبي : « هذا مصطفى »

مصطفى من ؟ هل هو أحد المغتربين من أبناء البلد عاد ؟

وقال أبي إن مصطفى ليس من أهل البلد ، لكنه غريب جاء منذ خمسة أعوام ، اشترى مزرعة وبنى بيتا وتزوج بنت محمود .. رجل في حاله ، لا يعلمون عنه الكثير

لا اعلم تماما ماذا أثار فضولي ، لكنني تذكرت أنه يوم وصولي كان صامتا . كل أحد سألني وسألته . سألوني عن أوربا . هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا ؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة ؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء ؟ يقولون ان النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال . وسألني ود الريس : « هل صحيح انهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام ؟ »

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمي . دهشوا حين قلت لهم ان الاوربيين ، اذا استثنينا فوارق ضئيلة ، مثلنا تماما ، يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والاصول ، ولهم أخلاق حسنة ، وهم عموما قوم طيبون

وسألني محجوب : « هل بينهم مزارعون ؟ »

وقلت له : « نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيء . منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم ، مثلنا تماما » . وآثرت الا أقول بقية ما خطر على بالي : « مثلنا تماما .'. يولدون ويموتون وفى الرحلة من المهد الى اللحد يحلمون أحلاما بعضها يصـــدق وبعضها يخيب . يخافون من المجهول ، وينشــدون الحب ، ويبحثون عن الطمأنينة فى الزوج والــولد . فيهم أقوياء ، وبينهم مستضعفون ، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق ، وبعضهم حرمته الحيــاة . لكن الفروق تضيق وأغلب الضعفاء لم يعــودوا ضــعفاء » . لم أقل لمحجوب هذا ، وليتنى قلت ، فقد كان ذكيا . خفت ، من غرورى، الا يفهم .

وقالت بنت محجوب ضاحكة : « خفنا أن تعود الينا بنصرانيـــة غلفاء » .

لكن مصطفى لم يقل شيئا . ظل يســتمع فى صمت ، يبتســـم أحيانا ، ابتسامة أذكر الآن أنها كانت غامضة ، مثل شخص يحدث نفســـــه .

نسيت مصطفى بعد ذلك ، فقد بدأت أعيد صلتى بالناس والاشياء فى القرية . كنت سعيدا تلك الايام ، كطفل يرى وجهه فى المرآة لاول مرة . وكانت أمى لى بالمرصـــاد ، تذكرنى بمن مات ، لاذهب واعزى ، وتذكرنى بمن تزوج ، لاذهب وأهنىء . جبت البلد طولا وعرضا معزيا ومهنئا . ويوما ذهبت الى مكانى الاثير ، عند جذع شجرة طلح على ضفة النهر . كم عدد الساعات التى قضيتها فى طفولتى تحت تلك الشجرة ، أرمى الحجارة فى النهر وأحلم ، ويشرد خيالى فى الافق البعيد ؟ أسمع أنين السواقى على النهر ، وتصايح الناس فى الحقول ، وخوار ثور أو نهيق حمار . كان الحظ يسعدنى أحيانا ، فتمر الباخرة أمامى صـــاعدة أو نازلة . من مكانى تحت

الشجرة ، رأيت البلد يتغير فى بطء . راحت السواقى ، وقامت على ضفة النيل طلمبات لضخ الماء ، كل مكنة تؤدى عمل مائة ساقية . ورأيت الضفة تتقهقر عاما بعد عام أمام لطمات الماء ، وفى جانب آخر يتقهقر الماء امامها . وكانت تخطر فى ذهنى احيانا أفكار غريبة . كنت افكر ، وأنا ارى الشاطىء يضيق فى مكان ، ويتسع فى مكان ، ان ذلك شأن الحياة ، تعطى بيد وتأخذ باليد الاخرى . لكن لعلنى أدركت ذلك فيما بعد . أنا الآن ، على أى حال ، ادرك هذه الحكمة ، لكن بذهنى فقط ، اذ ان عضلاتى تحت جلدى مرنة مطواعة وقلبى متفائل . اننى أريد أن آخذ حقى من الحياة عنوة ، أريد ان أعطى بسخاء ، أريد أن يفيض الحب من قلبى فينبع ويثمر . ثمة آفاق كثيرة لا بد ان تزار ، ثمة ثمار يجب أن تقطف ، كتب كثيرة تقرأ ، وصفحات بيضاء فى سجل العمر ، ساكتب فيها جملا واضحة بخط جرىء . وانظر الى النهر بدأ ماؤه يزيد بالطمى — لا بد أن المطر هطل فى هضاب الحبشة — والى الرجال قاماتهم متكئة على المحاريث ، أو منحنية على المعاول . وتمتلىء عيناى بالحقول المنبسطة كراحة اليد الى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت . أسمع طائرا يغرد ، او كلبا ينبح ، أو صوت فأس فى الحطب — واحس بالاستقرار . أحس أننى مهم ، وانني مستمر ، ومتكامل . « لا .. لست أنا الحجر يلقى فى الماء ، لكننى البذرة تبذر فى الحقل » . واذهب الى جدى ، فيحدثنى عن الحياة قبل أربعين عاما ، قبل خمسين عاما ، لا بل ثمانين ، فيقوى احساسى بالامن . كنت أحب جدى ، ويبدو انه كان يؤثرنى . ولعل أحد أسباب صداقتى معه ، اننى كنت منذ صغرى تشحذ خيالى حكايات الماضى ، وكان جدى يحب أن يحكى ولما سافرت خفت أن يموت فى غيبتى . وكنت حين يلم بى الحنين الى أهلى ، أراه فى منامى . قلت له ذلك ، فضحك وقال : « حدثنى

عراف واناشاب ، اننى اذاجاوزت عمر النبوة ـ يعنى الستين ـ فاننى ساصل المائة » . وحسبنا عمره ، أنا وهو فوجدنا انه بقى له نحو اثنى عشر عاما .

كان جدى يحدثنى عن حاكم هاشم ، حكم ذلك الاقليم أيام الاتراك . لست أعلم ما الذى دفع بمصطفى الى ذهنى ، لكننى تذكرته بغتة ، فقلت اسأل عنه جدى ، فهو عليم بحسب كل أحد فى البلد ونسبه ، بل باحساب وانساب مبعثرة قبلى وبحرى ، أعلى النهر واسفله . لكن جدى هز رأسه وقال انه لا يعلم عنه سوى أنه من نواحى الخرطوم ، وأنه جاء الى البلد منذ نحو خمسة اعوام ، واشترى ارضا تعرق وارثوها ، ولم تبق منهم الا امرأة . فاغراها الرجل بالمال واشتراها منها . ثم قبل أربعة أعوام زوجه محمود احدى بناته . قلت لجدى : « أى بناته ؟ » فقال : « أظنها حسنه » . وهز جدى رأسه وقال : « تلك القبيلة . لا يبالون لمن يزوجون بناتهم » . لكنه أردف ، كأنه يعتذر ، ان مصطفى طول اقامته فى البلد ، لم يبد منه شىء منفر ، وأنه يحضر صلاة الجمعة فى المسجد بانتظام ، وانه يسارع « بذراعه وقدحه فى الافراح والاتراح » .. هكذا طريقة جدى فى الكلام .

***

بعد هذا بيومين ، كنت وحدى أقرأ وقت القيلولة . كانت أمى وأختى تلغطان مع بعض النسوة فى أقصى البيت ، وكان أبى نائما ، وقد خرج اخواى لشأن ما . فخلوت بنفسى . سمعت نحنحة خارج البيت ، فقمت ، فاذا هو مصطفى ، يحمل بطيخة كبيرة ، وزنبيلا مملوءا برتقالا . ولعله رأى الدهشة على وجهى ، فقال : « أرجو الا أكون أيقظتك من نوم . لكننى قلت أجيئك بعينة من ثمر الحقل ، تذوقه . كذلك أحب أن أتعرف اليك . وقت الظهيرة ليس وقت

زيارة . اعذرني » .

لم يغب عني أدبه الجم ، فأهل بلدنا لا يبالون بعبارات المجاملة. يدخلون في الموضوع دفعة واحدة ، يزورونك ظهرا كان أو عصرا ، لا يهمهم أن يقدموا المعاذير . رددت الود بالود ، ثم جيء بالشاي .

دققت النظر في وجهه ، وهو مطرق . انه رجل وسيم دون شك ، جبهته عريضة رحبة ، وحاجباه متباعدان ، يقومان أهلة فوق عينيه ، ورأسه بشعره الغزير الاسيب متناسق تماما مع رقبته وكتفيه ، وأنفه حاد منخاراه مليئان بالشعر . ولما رفع وجهه أثناء الحديث ، نظرت الى فمه وعينيه ، فأحسست بالمزيج الغريب من القوة والضعف في وجه الرجل . كان فمه رخوا ، وكانت عيناه ناعستين ، تجعلان وجهه أقرب الى الجمال منه الى الوسامة . ويتحدث بهدوء ، لكن صوته واضح قاطع . حين يسكن وجهه يقوى . وحين يضحك ، يغلب الضعف على القوة . ونظرت الى ذراعيه ، فكانتا قويتين ، عروقهما نافرة ، لكن أصابعه كانت طويلة رشيقة ، حين يصل النظر اليهما بعد تأمل الذراع واليد ، تحس بغتة كأنك انحدرت من الجبل الى الوادي .

قلت أدعه يتحدث ، فهو لم يجيء الى في حماة القيظ ، الا ليقول لي شيئا . ولعله من ناحية أخرى جاء بوازع من حسن النية . لكنه قطع على حدسي . فقال : لعلك الوحيد من أهل البلد ، الذي لم أسعد بالتعرف عليه من قبل » . لماذا لا يترك هذا الادب ، ونحن في بلد اذا غضب فيها الرجال ، قال بعضهم لبعض : يا ابن الكلب .

« سمعت كثيرا عنك من أهلك وأصدقائك » — لا غرو ، فقد كنت أعد نفسي زينة الشباب في البلد .

« قالوا انك نلت شهادة كبيرة — ماذا تسمونها ؟ الدكتوراه ؟ » يقول لي ماذا تسمونها ؟ لم يعجبني ذلك ، فقد كنت أحسب أن

الملايين العشرة فى القطر كلهم سمعوا بانتصارى .

« يقولون انك لامع منذ صغرك » .

« العفو » ـ هكذا قلت ، لكننى ، والحق يقال ، كنت تلك الايام مزهوا بنفسى ، حسن الظن بها .

« دكتوراه . هذا شيء كبير » .

فقلت له ، وأنا أتصنع التواضع ، ان الامر لا يعدو أننى قضيت ثلاثة اعوام ، انقب فى حياة شاعر مغمــور من شــعراء الانكليز . واغتظت ، لا أخفى عليكم اننى اغتظت ، حين ضــحك الرجل ملء وجهه ، وقال :

« نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر . لو انك درست علم الزراعة او الهندسة أو الطب ، لكان خيرا » . أنظر كيف يقول « نحن » ولا يشملنى بها ، مع العلم بأن البلد بلدى ، وهو ـ لا أنا ـ الغريب .

لكنــه ابتســم فى وجهى برقة ، ولاحظت كيف طغى الضعف فى وجهه على القــوة ، وكيف أن عينيه فى الواقع جميلتــان كعينى أنثى ، وقال :

« لكن نحن مزارعون نفكر فيما يعنينا ، انما العلم ، مهما كان ، ضرورى لرفعة الوطن » .

صمت برهة ، فازدحمت أسئلة كثيرة فى راسى : من أين هو ؟ ولماذا استقر فى هذا البلد ؟ وما هى قصته ؟ لكننى آثرت التريث ، وأسعفنى هو فقال :

« الحياة فى هذا البلد هينة خيرة . الناس طيبون عشرتهم سهلة » .

فقلت له : « انهم يذكرونك بالخير . جــدى يقــول انك رجــل فاضل » .

ضحك حينئذ ، ربما لأنه تذكر مقابلة له مع جدى ، وبدا كأنه

سر من قولى ، وقال :

« جلك .. ذاك رجل . ذاك رجـل .. تسـعون عاما وقامته منتصبة ، ونظره حاد ، وكل سن فى فمه . يقفـز فوق الحمـار خفيفا ، ويمشى من بيته للمسجد فى الفجر . هاه . ذاك رجل » . كان مخلصا وهو يقول هذا . ولم لا ؟ وجدى ، فى واقع الامر ، اعجوبة .

وخفت أن يفلت الرجل قبل أن أعلم عنه شيئا – الى هذا الحد بلغ فضولى – فجرى السؤال على لسانى قبل ان افكر :

« هل صحيح انك من الخرطوم ؟ »

وفوجىء الرجل قليلا ، وخيل لى ان مابين عينيه قد تعكر ، لكنه بسرعة ومهارة عاد الى هدوئه ، قال لى وهو يتعمد أن يبتسم :

« من ضواحى الخرطوم فى الواقع . قل الخرطوم » .

وصمت برهة قصيرة ، وكأنه يناقش بينه وبين نفسه ، هـل يصمت أم يعطينى المزيد . ثم رأيت الطيف السـاحر يحوم حول عينيه ، تماما كمـا رأيته أول يوم ، وقال وهـو ينظر الى وجهـا قبالة وجه :

« كنت فى الخرطوم أعمل فى التجـارة . ثم لاسـباب عديدة ، قررت أن أتحول للزراعة . كنت طول حياتى أشتاق للاستقرار فى هذا الجزء من القطر ، لا أعلم السبب . وركبت الباخرة ، وأنـا لا أعلم وجهتى . ولما رست فى هـذا البلد ، أعجبتنى هيئتهـا . وهجس هاجس فى قلبى : هذا هو المكان . وهكذا كان ، كما ترى . لم يخب ظنى فى البلد ولا أهله » . ثم صمت ، وقام قائلا انه ذاهب للحقل ، ودعانى للعشاء فى بيته بعد يومين .

ولما أوصلته للباب ، قال لى وهو يودعنى ، والطيف الساحر اكثر وضوحا حول عينيه :

« جدك يعرف السر » .

ولم يمهلني حتى أسأله : « أى سر يعرفه جدى ؟ جدى ليست له أسرار » . ولكنه مضى مبتعداً بخطوات نشيطة متحفزة ، رأسه يميل قليلا الى اليسار .

***

ذهبت للعشاء فوجدت محجوبا ، والعمدة ، وسعيد التاجر ، وابى . تعشينا دون أن يقول مصطفى شيئا يثير الاهتمام . كان كعادته يسمع أكثر مما يتكلم . كنت ، حين يخفت الحديث وحين اجد انه لا يعنيني كثيرا ، اتلفت حولى كأنني أحاول ان أجد في غرف البيت وجدرانه الجواب على الاسئلة التى تدور فى رأسى . لكنه كان بيتا عاديا ، ليس أحسن ولا أسوأ من بيوت الميسورين فى البلد . منقسم الى جزءين كبقية البيوت ، جزء للنساء ، والقسم الذى فيه « الديوان » للرجال . ورأيت الى يمين الديوان غرفة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات نوافذ خضراء . سقفها لم يكن مسطحا كالعادة ، ولكنه كان مثلثا كظهر الثور .

قمنا انا ومحجوب وتركنا الباقين . وفى الطريق سألت محجوبا عن مصطفى . لم يخبرنى بجديد لكنه قال : « مصطفى رجل عميق » .

قضيت فى البلد شهرين ، كنت خلالهما سعيدا . وقد جمعتنى الصدف بمصطفى عدة مرات . مرة دعيت لحضور اجتماع لجنة المشروع الزراعى . دعانى محجوب ، رئيس اللجنة ، وقد كان صديقى ، نشأنا معا منذ طفولتنا . دخلت عليهم فكان مصطفى بينهم ، وكانوا يبحثون أمرا يتعلق بتوزيع الماء على الحقول . ويبدو أن بعض الناس ، ومنهم من هو عضو فى اللجنة ، كانوا يفتحون الماء فى حقولهم قبل الموعد المحدد لهم . واحتد النقاش وتصايحوا

بعضهم على بعض . وفجأة رأيت مصطفى يهب واقفا . هدأ اللغط واستمعوا اليه باحترام زائد . وقال مصطفى ان الخضوع للنظام في المشروع أمر مهم ، والا اختلطت الامور وسادت الفوضى ، وان على أعضاء اللجنة خاصة أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، فاذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس . ولما فرغ من كلامه هز أغلب أعضاء اللجنة رءوسهم استحسانا ، وصمت من عناهم الكلام .

لم يكن ثمة أدنى شك في أن الرجل من عجينة أخرى ، وانه أحقهم برئاسة اللجنة ، لكن ربما لأنه ليس من أهل البلد لم ينتخبوه .

***

بعد هذا بنحو أسبوع ، حدث شيء أذهلني . دعاني محجوب لمجلس شراب . وبينما نحن نسمر جاء مصطفى يكلم محجوبا في شأن من شئون المشروع . دعاه محجوب أن يجلس فاعتذر ، ولكن محجوبا حلف عليه بالطلاق . مرة أخرى لاحظت سحابة التبرم تنعقد ما بين عينيه . ولكنه جلس ، وعاد بسرعة الى هدوئه الطبيعي . وناوله محجوب كأسا من الشراب ، فتردد برهة ثم أمسك بها ووضعها الى جانبه دون أن يشرب منها . ومرة أخرى أقسم محجوب ، فشرب مصطفى . كنت أعرف محجوبا متهورا ، فخطر لي أن أمنعه عن مضايقة الرجل ، اذ من الواضح أنه غير راغب في الجلسة أصلا . لكن خاطرا آخر هجس في ذهني ، فتوقفت . شرب مصطفى الكأس الاولى باشمئزاز واضح ، شربها بسرعة ، كأنها دواء مقيت . لكنه لما وصل الى الكأس الثالثة ، اخذ يبطيء ، ويمص الشراب مصا ، بلذة . حينئذ ارتخت عضلات وجهه ، وغاب التوتر في أركان فمه ، وأصبحت عيناه حالمتين ناعستين ، أكثر من ذي قبل . القوة التي تحسها في رأسه وجبهته وأنفه ، ضاعت تماما ، في الضعف الذي سال ، مع الشراب ، على عينيه وفمه .

شرب مصطفى كاسا رابعة ، وكاسا خامسة . لم يعد فى حاجة لى تشجيع ، لكن محجوبا كان يحلف بالطلاق على أى حال . دفن مصطفى قامته فى المقعد ، ومدد رجليه ، وامسك الكأس بكلتا يديه ، وسرحت عيناه ، كما خيل لى ، فى آفاق بعيدة . ثم ، فجأة ، سمعته يتلو شعرا انكليزيا ، بصوت واضح ونطق سليم . قرأ قصيدة وجدتها فيما بعد بين قصائد عن الحرب العالمية الاولى :

« هؤلاء نساء فلاندرز
ينتظرن الضائعين ،
ينتظرن الضائعين الذين ابدا لن يغادروا الميناء ،
ينتظرن الضائعين الذين أبدا لن يجيء بهم القطار ،
الى أحضان هؤلاء النسوة ، ذوات الوجوه الميتة ،
ينتظرن الضائعين ، الذين يرقدون موتى فى الخندق والحاجز والطين
فى ظلام الليل .
هذه محطة تشارنغ كروس . الساعة جاوزت الواحدة .
ثمة ضوء ضئيل
ثمة الم عظيم » .

بعد ذلك تأوه ، وهو لا يزال ممسكا بالكأس بين يديه ، وعيناه سارحتان ، فى آفاق داخل نفسه .

أقول لكم ، لو أن عفريتا انشقت عنه الارض فجأة ، ووقف امامى ، عيناه تقدحان اللهب ، لما ذعرت أكثر مما ذعرت . وخامرنى ، بغتة ، شعور فظيع ، شيء مثل الكابوس ، كأننا نحن الرجال المجتمعين فى تلك الغرفة ، لم تكن حقيقة ، انما وهما من الاوهام . وقفزت ، ووقفت فوق الرجل ، وصحت فيه : « ماهذا الذى تقول؟ ما هذا الذى تقول ؟ » نظر الى نظرة جامدة ، لا ادرى كيف أصفها ، لكن لعلها كانت خليطا من الاحتقار والضيق . ودفعنى بعنف بيده ،

ثم هب واقفا ، وخرج من الغرفة فى خطوات ثابتة ، مرفوع الرأس، كأنه شيء ميكانيكى . كان محجوب مشغولاً ، يضحك مع بقية من فى المجلس ، فلم ينتبه لما حدث .

ذهبت اليه ثانى يوم فى حقله ، فوجدته مكبا يحفر الارض حول شجرة ليمون . كان مرتديا سروالا من الكاكى قصيرا متسخا ، وقميصا من الدبلان يصل الى ركبتيه ، وعلى وجهه بقع من الطين . حيانى بأدبه الجم كعادته وقال لى : « بعض فروع هذه الشجرة تثمر ليمونا ، وبعضها يثمر برتقالا » . فقلت له بالانجليزى ، عمدا : « شيء مدهش » . فنظر الى مستغربا وقال : « ماذا ؟ » . فأعدت الجملة . ضحك ، وقال لى : « هل انستك اقامتك الطويلة فى انجلترا العربى ، أم تحسب اننا خواجات ؟ » قلت له : « لكنك ليلة امس قرات الشعر باللغة الانجليزية » .

غاظنى صمته . فقلت له : « من الواضح انك شخص آخر غير ما تزعم . من الخير أن تقول لى الحقيقة » . لم يبد عليه اى تأثر بالتهديد الذى ضمنته كلامى ، ومضى يحفر حول الشجرة . ولما فرغ من حفره ، قال وهو ينفض الطين عن يديه دون أن ينظر الى :

« لا أدرى ماذا قلت وماذا فعلت فى الليلة الماضية . السكران لا يؤاخذ على كلامه . اذا كنت قلت شيئا ، فهو كخترفة النائم ، أو هذيان المحموم . ليست له قيمة . أنا هو هذا الشخص الذى امامك ، كما يعرفه كل أحد فى البلد . لست خلاف ذلك ، وليس عندى شيء أخفيه » .

ذهبت الى البيت ، ورأسى يضج بالافكار . أنا واثق ان وراء « مصطفى » قصة ، أو شيئا لا يود أن يبوح به . هل خانتنى أذناى ليلة البارحة ؟ الشعر الانجليزى الذى قراه ، كان حقيقة . لم اكن سكران ، ولم أكن نائما ، وصورته وهو جالس فى ذلك المقعد ،

ممدا رجليه ، ممسكا بالكأس بكلتا يديه ، صورة واضحة لا مراء فيها . هل احدث أبى ؟ هل اقول لمحجوب ؟ لعل الرجل قتل أحدا فى مكان ما وفر من السجن ؟ لعله .. لكن اية أسرار فى هذا البلد ؟ لعله فقد ذاكرته ؟ يقال ان بعض الناس يصابون « بالامنيزيا » اثر حادث . وأخيرا قررت أن أمهله يومين أو ثلاثة ، فاذا لم يأتنى بالحقيقة ، كان لى معه شأن آخر .

لم يطل انتظارى ، فقد جاءنى مصطفى عشية ذلك اليوم . وجد أبى واخوى أيضا ، فقال انه يريد أن يحدثنى على انفراد . قمت معه ، فقال لى : « هل تحضر الى بيتى مساء غد ؟ أريد أن أتحدث اليك » . ولما عدت سألنى أبى : « ماذا يريد مصطفى ؟ » فقلت له انه يريدنى أن أفسر له عقدا بملكية أرض له فى الخرطوم .

رحت اليه عند المغيب ، فوجدته وحده ، أمامه آنية شاى . عرض على الشاى فأبيت ، فقد كنت فى الحقيقة أتعجل سماع القصة . لابد انه قرر أن يقول الحقيقة . أعطانى سيجارة فقبلتها

تفرست فى وجهه وهو ينفث الدخان ببطء ، فبدا هادئا قويا . أبعدت الفكرة ، وأنا انظر فى وجهه ، أن يكون قاتلا . استعمال العنف يترك أثرا فى الوجه لا تخطئه العين . أما انه فقد ذاكرته ، فهذا محتمل . وأخيرا بدأ مصطفى يتحدث ، ورأيت الطيف الساخر حول عينيه أوضح من أى وقت رأيته فيه . شيء محسوس ، كأنه لمع البرق

« ساقول لك كلاما لم أقله لاحد من قبل . لم أجد سببا لذلك قبل الآن . قررت هذا حتى لا يجمح خيالك ، وأنت درست الشعر » . ضحك حتى يخفف حدة الاحتقار التي بدت في صوته وهو يقول هذا

« خفت أن تذهب وتتحدث الى الآخرين . تقول لهم اننى لست الرجل الذى أزعم . فيحدث ... يحدث بعض الحرج ، لى ولهم . لذا فان لى عندك رجاء واحدا . ان تعدني بشرفك ، أن تقسم لى بانك لن

تبوح لمخلوق بشيء مما سأحدثك به الليلة » . ونظر الى نظرة مركزة .
فقلت له :

« هذا يعتمد على ما ستقوله لى . كيف أعدك وأنا لا أعلم عنـــك شيئا ؟ »

فقال : « اننى اقسم لك بأن شيئا مما ســـأقوله لك لن يؤثر على وجودى فى هذا البلد . اننى رجل فى كامل عقلى ، مسالم ، لا أحب لهذا البلد وأهله الا الخير »

لا أكتمك اننى ترددت . لكن اللحظة كانت مشحونة بالاحتمالات ، وكان فضولى عارما ليس له حد .خلاصة القول اننى وعدت وأقسمت، فدفع مصطفى الى برزمة أوراق وأومأ لى ان أنظر فيها . فتحت ورقـة فاذا هى وثيقة ميلاده . مصطفى سعيد ، من مواليـــد الخرطوم ، ١٦ أغسطس عام ١٨٩٨ ... الاب متوفى ، الام فاطمة عبد الصادق ، فتحت بعد ذلك جواز سفره ، الاسم ، المولد ، البلد ، كما فى شهادة الميلاد . المهنة « طالب » . تاريخ صدور الجواز عام ١٩١٦ فى القاهرة وجدد فى لندن عام ١٩٢٦ . كان ثمة جواز ســـفر آخر ، انكليزى ، صدر فى لندن عام ١٩٢٩ . قلبت صفحاته فاذا أختام كثيرة ، فرنسية والمانية وصينية ودنماركية . كل هذا شحذ خيالى بشكل لا يوصف ، فلم أستطع المضى فى تقليب صفحات جواز الســفر ، وانصرف ذهنى عن بقية الاوراق . ولا بد أن وجهى كان مشحونا بالترقب حين نظرت اليه . مضى مصطفى ينفث فى دخان سيجارته برهة ، ثم قال :

(٢)

انها قصة طويلة · لكننى لن أقول لك كل شيء · وبعض التفاصيل لن تهمك كثيرا ، وبعضـــــها ··· المهم اننى كمـــا ترى ولدت فى الخرطوم · نشأت يتيما ، فقد مات أبى قبل أن أولد ببضعة أشهر ، لكنه ترك لنا ما يستر الحال · كان يعمل فى تجارة الجمال · لم يكن لى أخوة ، فلم تكن الحيـــاة عسيرة على وعلى أمى · حين أرجـــع الآن بذاكرتى ، أراها بوضوح ، شفتاها الرقيقتان مطبقتان فى حزم ، وعلى وجهها شيء مثل القناع · لا أدرى · قناع كثيف ، كان وجههـا صفحة بحر ، هل تفهم ؟ ليس له لون واحد بل ألوان متعددة ، تظهر وتغيب ، وتتمازج · لم يكن لنا أهل · كنا ، انا وهى ، أهلا بعضنا لبعض · كانت كأنها شخص غريب جمعتنى به الظروف صدفة فى الطـريق · لعلنى كنت مخلوقا غريبا ، أو لعل أمى كانت غريبة · لا أدرى · لم نكن نتحدث كثيرا ، وكنت ، ولعلك تعجب ، أحس احساسا دافئـــا بأننى حر ، بأنه ليس ثمة مخــلوق ، أب أو أم ، يربطنى كالوتد الى بقعة معينة ومحيط معين · كنت أقرأ وأنام ، أخرج وأدخـــل ، العب خارج البيت ، أتسكع فى الشـــوارع ، ليس ثمة احـــد يأمرنى أو ينهانى · الا أننى منذ صغرى ، كنت أحس بأننى ··· اننى مختلف · أقصد أننى لست كبقية الاطفال فى سنى ، لا اتأثر بشيء لا أبكى اذا ضربت ، لا افرح اذا أثنى على المدرس فى الفصل ، لا أتألم لما يتألم له الباقون · كنت مثل شيء مكور من المطاط ، تلقيه فى الماء فلا يبتل ، ترميه على الارض فيقفز · كان ذلك الوقت أول عهـــدنا بالمدارس

اذكر الآن أن الناس كانوا غير راغبين فيها . كانت الحكومة تبعث أعوانها يجوبون البلاد والاحياء ، فيخفي الناس ابناءهم . كانوا يظنونها شرا عظيما جاءهم مع جيوش الاحتلال . كنت ألعب مع الصبية خارج دارنا ، فجاء رجل على فرس ، في زي رسمي ، ووقف فوقنا . جرى الصبية ، وبقيت أنظر الى الفرس والى الرجل فوقه . سألني عن اسمي فأخبرته . قال لي كم عمرك ، فقلت له لا أدري . قال لي : « هل تحب أن تتعلم في المدرسة ؟ » قلت له : « ما هي المدرسة ؟ » فقال لي : « بناء جميل من الحجر وسط حديقة كبيرة على شاطىء النيل . يدق الجرس وتدخل الفصل مع التلاميذ . تتعلم القراءة والكتابة والحساب » . قلت للرجل : « هل ألبس عمامة كهذه ؟ » وأشرت الى شيء كالقبة فوق رأسه . فضحك الرجل وقال لي : « هذه ليست عمامة . هذه برنيطة . قبعة » . وترجل من على فرسه ووضعها فوق رأسي ، فغاب وجهي كله فيها . ثم قال الرجل : « حين تكبر ، وتخرج من المدرسة ، وتصير موظفا في الحكومة ، تلبس قبعة كهذه » . قلت للرجل : « اذهب للمدرسة » . أردفني الرجل خلفه فوق الحصان ، وحملني الى مكان ، كما وصفه ، من الحجر ، على ضفة النيل ، تحيط به أشجار وأزهار . ودخلنا على رجل ذي لحية ، يلبس جبة ، فقام وربت على رأسي ، وقال لي : « لكن اين أبوك ؟ » فقلت له ان أبي ميت . فقال لي : « من ولي أمرك ؟ » قلت له : « أريد أن أدخل المدرسة » . نظر الى الرجل بعطف ، ثم قيدوا اسمي في سجل ، وسألوني كم عمري فقلت لهم لا أدري . وفجأة دق الجرس . ففررت منهم ، ودخلت احدى الحجرات فجاء الرجلان وساقاني الى حجرة أخرى وأجلساني في مقعد بين صبية آخرين . عدت الى أمي في الظهر فسألتني أين كنت ، فحكيت لها القصة . نظرت الى برهة نظرة غامضة ، كأنها ارادت أن تضمني الى صدرها ، فقد رأيت وجهها

يصفو برهة ، وعينيها تلمعان ، وشـــفتيها تفترات كأنهـــا تريد أن تبتسم ، أو تقول شيئا • لكنها لم تقل شـــيئا • وكانت تلك نقطة تحول في حياتي • كان ذلك أول قرار اتخذته ، بمحض ارادتي •

انني لا أطلب منك أن تصـــدق ما اقوله لك • لك أن تعجب وأن تشك • انت حر • هذه وقائع مضى عليها وقت طويل ، وهي كمـــا ترى الآن ، لا قيمة لها • اقولها لك لانها تحضرني ، لأن الحـوادث بعضها يذكر بالبعض الآخر

المهم انني انصرفت بكل طاقاتي لتلك الحياة الجديدة • وسرعان ما اكتشفت في عقلي مقدرة عجيبة على الحفظ والاستيعاب والفهـــم • أقرأ الكتاب فيرسخ جمـــلة في ذهني • ما ألبث أن أركـــز عقلي في مشكلة الحساب حتى تتفتح لي مغالقها ، تذوب بين يدي كأنها قطعة ملح وضعتها في الماء • تعلمت الكتابة في أسبوعين ، وانطلقت بعـد ذلك لا ألوي على شيء • عقلي كأنه مدية حادة ، تقطع في برود وفعالية• لم أبال بدهشة المعلمين واعجاب رفقائي أو حسدهم • كان المعـلمون ينظرون الي كأنني معجزة ، وبدأ التلاميذ يطلبون ودي • لكنني كنت مشغولا بهذه الآلة العجيبة التي أتيحت لي • وكنت باردا كحقل جليد، لا يوجد في العالم شيء يهزني

طويت المرحلة الأولى في عامين ، وفي المدرسة الوسطى اكتشفت ألغازا أخرى ، منها اللغـــة الانكليزية • فمضى عقلي يعض ويقطع ، كأسنان محراث . الكلمات والجمل تتراءى لي كأنها معـــادلات رياضية ، والجبر والهندسة كأنها أبيات شعر . العالم الواسع أراه في دروس الجغرافيا ، كأنه رقعة شطرنج . كانت المرحلة الوسطى أقصى غاية يصل اليها المرء في التعليم تلك الأيام • وبعد ثلاثة أعوام ، قال لي ناظر المدرسة ، وكان انكليزيا : « هذه البلد لا تتســـع لذهنك ، فسافر . اذهب الى مصر أو لبنـــان أو انكلترا . ليس،

عندنا شيء نعطيك اياه بعد الآن » . قلت له على الفور : « أريد أن اذهب الى القاهرة » . فسهل لى ، فيما بعد ، السفر ، والدخول مجانا فى مدرسة ثانوية فى القاهرة ، ومنحة دراسية من الحكومة . وهذه حقيقة فى حياتى ، كيف قيضت الصدف لى قوما ساعدونى واخذوا بيدى فى كل مرحلة ، قوما لم اكن أحس تجـــاههم باى احساس بالجميل . كنت أتقبل مساعداتهم ، كأنها واجب يقومون به نحوى

حين اخبرنى ناظر المدرسة بان كل شيء اعد لسفرى للقاهرة ، ذهبت الى امى وحدثتها . نظرت الى مرة اخرى ، تلك النظرة الغريبة . افترت شفتاها لحظة كأنها تريد أن تبتسم ، ثم أطبقتهما، وعاد وجهها كعهده ، قناعا كثيفا ، بل مجموعة اقنعة . ثم غابت قليلا ، وجاءت بصرة وضعتها فى يدى ، وقالت لى :

« لو أن اباك عاش ، لما اختار لك غير ما اخترته لنفسك . افعل ما تشاء . سافر . أو ابق . انت وشأنك . انها حياتك ، وانت حر فيها . فى هذه الصرة مال تستعين به » . كان ذلك وداعنا . لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء . مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا ، ثم سلك كل منهما سبيله . وكان ذلك فى الواقع آخر ما قالته لى ، فاننى لم أرها بعد ذلك . بعد سنوات طويلة ، وتجارب عدة ، تذكرت تلك اللحظة ، وبكيت . اما الآن ، فاننى لم أشعر بشيء على الاطلاق . جمعت متاعى فى حقيبة صغيرة ، وركبت القطار . لم يلوح لى احد بيده ولم تنهمر دموعى لفراق أحد . وضرب القطار فى الصحراء ، ففكرت قليلا فى البلد الذى خلفتـــــه ورائى ، فكان مثل جبل ضربت خيمتى عنده ، وفى الصباح قلعت الاوتاد وأسرجت بعيرى ، وواصلت رحلتى . وفكرت فى القاهرة ونحن فى وادى حلفا ، فتخيلها عقلى جبلا آخر ، اكبر حجما ، سأبيت عنده ليلة او ليلتين ،

ثم اواصل الرحلة الى غاية أخرى

اذكر اننى جلست فى القطار قبالة رجل فى مسوح وعلى رقبته صليب كبير أصفر . ابتسم الرجل في وجهي وتحـدث معى باللغة الانكليزية ، فأجبته . أذكر تماما أن الدهشة بدت على وجهه واتسعت حدقتا عينيه اول ما سمع صوتى . دقق النظر فى وجهى وقال لى : « كم سنك ؟ » فقلت له خمسة عشر . كنت فى الواقع فى الثانية عشرة ، لكننى خفت أن يستقلنى . فقال الرجل : « الى أين تقصد ؟ » فقلت له : « اننى ذاهب للالتحاق بمدرسة ثانوية فى القاهرة » . فقال « وحدك ؟ » قلت نعم . نظر الى مرة أخرى نظرة طويلة فاحصة ، فقلت له قبل أن يتكلم : « اننى احب السفر وحدى . مم أخاف ؟ » حينئذ قال لى جملة لم أحفل بها كثيرا وقتذاك . واضاءت وجهه ابتسامة كبيرة واردف : « انك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مذهلة »

وصلت القاهرة ، فوجدت مستر روبنسن وزوجته فى انتظارى ، فقد اخبرهما مستر ستكول بقدومى . صافحنى الرجل وقال لى : « كيف انت يامستر سعيد ؟ » فقلت له : « أنا بخير يا مستر روبنسن » . ثم قدمنى الى زوجته . وفجاة أحسست بذراعي المرأة تطوقاننى ، وبشفتيها على خدى . فى تلك اللحظة ، وأنا واقف على رصيف المحطة ، وسط دوامة من الاصوات والاحاسيس ، وزندا المرأة ملتفان حول عنقي ، وفمها على خدى ، ورائحة جسمها ، رائحة أوربية غريبة ، تدغدغ انفى ، وصدرها يلامس صدرى ، شعرت وأنا الصبى ابن الاثنى عشر عاما بشهوة جنسية مبهمة لم أعرفها من قبل فى حياتى ، وأحسست كأن القاهرة ، ذلك الجبل الكبير الذى حملنى اليه بعيرى ، امرأة أوربية ، مثل مسز روبنسن تماما ، تطوقنى ذراعاها ، يملأ عطرها ورائحة جسدها

انفى . كان لون عينيها كلون القاهرة فى ذهنى ، رماديا ، اخضر ، يتحول بالليل الى وميض كوميض البراعة

كانت مسز روبنسن تقول لى : « انت يا مستر سعيد انسان خال تماما من المرح » . صحيح اننى لم اكن اضحك . وتضحك مسز روبنسن وتقول لى : « الا تستطيع أن تنسى عقلك ابدا ؟ » ويوم حكموا على فى الاولد بيلى بالسجن سبع سنوات ، لم اجد صدرا غير صدرها اسند راسى اليه . ربتت على راسى وقالت : « لا تبك يا طفلى العزيز » . لم يكن لهما أطفال . كان مستر روبنسن يحسن اللغة العربية ، ويعنى بالفكر الاسلامى والعمارة الاسلامية ، فزرت معهما جوامع القاهرة ، ومتاحفها وآثارها .

وكانت احب مناطق القاهرة اليهما ، منطقة الازهر . كنا حين تكل اقدامنا من الطواف ، نلوذ بمقهى بجوار جامع الازهر ، ونشرب عصير التمرهندى ، ويقرأ مستر روبنسن شعر المعرى . كنت وقتها مشغولا بنفسى ، فلم احفل بالحب الذى اسبغاه على . كانت مسز روبنسن ممتلئة الجسم ، برونزية اللون ، منسجمة مع القاهرة ، كأنها صورة منتقاة بذوق ، لتناسب لون الجدران فى غرفة . وكنت أنظر الى شعر ابطيها واحس بالذعر .. لعلها كانت تعلم اننى أشتهيها ، لكنها كانت مذبة ، أعذب امرأة عرفتها . تضحك بمرح ، وتحنو على كما تحنو أم على ابنها

وكانا على الرصيف حين اقلعت بى الباخرة من الاسكندرية . ورايتها من بعيد وهى تلوح لى بمنديلها ، ثم تجفف به الدمع من عينيها ، والى جوارها زوجها ، واضعا يديه على خصره ، واكاد أرى ، حتى من ذلك البعد ، صفاء عينيه الزرقاوين . الا اننى لم اكن حزينا ، كان كل همى أن اصل لندن ، جبلا آخر أكبر من القاهرة ، لا أدرى كم ليلة أمكث عنده . كنت فى الخامسة عشرة ،

يظنني من يراني فى العشرين ، متماسكا على نفسي ، كأنني قربة منفوخة . ورائي قصة نجاح فذ في المدرسة ، كل سلاحي هذه المدية الحادة فى جمجمتي ، وفى صدري احساس بارد جامد ، كأن جوف صدري مصبوب بالصخر . ولما ابتلعت اللجة الساحل ، وهاج الموج تحت السفينة ، واستدار الأفق الازرق حوالينا ، احسست توا بألفة غامرة للبحر . انني أعرف هذا العملاق الاخضر اللامنتهي ، كأنه يمور بين ضلوعي . واستمرت طيلة الرحلة ذلك الاحساس فى اني فى لا مكان ، وحدي ، أمامي وخلفي الابد أو لا شيء وصفحة البحر حين يهدأ سراب آخر ، دائم التبدل والتحول ، مثل القناع الذي على وجه امي . هنا أيضا صحراء مخضرة مزرقة ممتدة ، تناديني ، تناديني . وقادني النداء الغريب الى ساحل دوفر ، والى لندن ، والى المأساة . لقد سلكت ذلك الطريق بعد ذلك عائدا . وكنت أسائل نفسي طوال الرحلة ، هل كان من الممكن تلافي شيء مما وقع ؟ وتر القوس مشدود ، ولا بد أن ينطلق السهم . وانظر الى اليسار واليمين ، الى الخضرة الداكنة ، والقرى السكسونية القائمة على حواف التلال . سقوف البيوت حمراء ، محدودبة كظهور البقر . وثمة غلالة شفافة من الضباب ، منشورة فوق الوديان . ما أكثر الماء هنا وما أرحب الخضرة . وكل تلك الالوان . ورائحة المكان غريبة ، كرائحة جسد مسز روبنسن . والاصوات لها وقع نظيف فى اذني ، مثل حفيف أجنحة الطير . هذا عالم منظم ، بيوته وحقوله وأشجاره مرسومة وفقا لخطة . الغدران كذلك ، لا تتعرج ، بل تسيل بين شطآن صناعية . ويقف القطار في المحطة ، بضع دقائق . يخرج الناس مسرعين ، ويدخلون مسرعين ، ثم يتحرك القطار . لا ضوضاء . وفكرت في حياتي في القاهرة . لم يحدث شيء ليس في الحسبان . زادت معلوماتي .

وحدثت لى أحداث صغيرة ، وأحبتنى زميلة لى ثم كرهتنى . وقالت لى : « انت لست انسانا . أنت آلة صماء » . تسكعت فى شوارع القاهرة ، وزرت الاوبرا ، ودخلت المسرح ، وقطعت النيل سابحا ذات مرة . لم يحدث شيء اطلاقا ، سوى ان القربة زادت انتفاخا ، وتوتر وتر القوس . سينطلق السهم نحو آفاق أخرى مجهـــولة .

وانظر الى دخان القطار ، يتلاشى ، حيث تهب به الريح ، فى غلالة الضباب المنتشرة فى الوديان . واخذتنى سنة من النوم . وحلمت اننى أصلى وحدى فى جامع القلعة . كان المســجد مضــاء بآلاف الشمعدانات ، والرخام الأحمر يتوهج ، وأنا وحـــدى أصـــلى . واستيقظت وفى أنفى رائحة البخور ، فاذا القطار يقترب من لندن . القاهرة مدينة ضاحكة ، وكذلك مسز روبنسن . كانت تريدنى أن أناديها باسمها الأول ، اليزابيث ، لكننى كنت أناديها دائما باسم زوجها . تعلمت منها حب موسيقى باخ ، وشعر كيتس ، وسمعت عن مارك توين لأول مـــرة منهـــا . لكنى لم أكن أستمتع بشيء .

وتضحك مسزروبنسن وتقول لى : « الا تستطيع أن تنسى عقلك أبدا ؟ » هل كان من الممكن تلافى شيء مما حدث ؟ كنت عائدا حينذاك وتذكرت ما قاله لى القسيس ، وانا فى طريقى الى القاهرة : « كلنا يابنى نسافر وحدنا فى نهاية الأمر » . كانت يده تتحسس الصليب على صدره . واضاءت وجهه ابتسامة كبيرة وأردف : « انك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مـــذهلة » . اللغة التى اسمعها الآن ليست كاللغة التى تعلمتها فى المدرسة . هذه أصوات حية ، لها جرس آخر . كان عقلى كأنه مدية حادة . لكن اللغة ليست لغتى . تعلمت فصاحتها بالممارسة . وحملنى القطار الى محطة فكتوريا ، والى عالم جين مورس

كل شيء حدث قبل لقائى اياها ، كان ارهاصا . وكل شيء فعلته

بعد ان قتلتها كان اعتذارا ، لا لقتلها ، بل لاكذوبة حياتي . كنت في الخامسة والعشرين حين لقيتها ، وفي حفل في تشلسي . الباب ، وممر طويل يؤدي الى القاعة . فتحت الباب ، وتريثت ، وبدت لعيني تحت ضوء المصباح الباهت كأنها سراب لمع في صحراء . كنت مخمورا ، كأسي بقي ثلثها ، وحولي فتاتان ، أتفحش معهما ، وتضحكان . وجاءت تسعى نحونا بخطوات واسعة ، تضع ثقل جسمها على قدمها اليمنى ، فيميل كفلها الى اليسار . وكانت تنظر الي وهي قادمة . وقفت قبالتي ونظرت الي بصلف وبرود ، وشيء آخر . وفتحت فمي لأتكلم ، لكنها ذهبت . وقلت لصاحبتي : « من هذه الانثى ؟ »

كانت لندن خارجة من الحرب ومن وطأة العهد الفكتوري . عرفت حانات تشلسي ، واندية هامبستد ، ومنتديات بلومزبري . اقرأ الشعر ، واتحدث في الدين والفلسفة ، وأنقد الرسم ، واقول كلاما عن روحانيات الشرق . أفعل كل شيء ، حتى ادخل المرأة في فراشي . ثم أسير الى صيد آخر . لم يكن في نفسي قطرة من المرح ، كما قالت مسز روبنسن . جلبت النساء الى فراشي من بين فتيات جيش الخلاص ، وجمعيات الكويكرز ، ومجتمعات الفابيانيين . حين يجتمع حزب الاحرار أو العمال او المحافظين أو الشيوعيين ، أسرج بعيري واذهب . ومن المرة الثانية ، قالت لي جين مورس : « انت بشع . لم ار في حياتي وجها بشعا كوجهك » . وفتحت فمي لأتكلم لكنها ذهبت . وحلفت في تلك اللحظة ، وأنا سكران ، انني سأتقاضاها الثمن في يوم من الايام . وصحوت وآن همند الى جواري في الفراش . اي شيء جذب آن همند الي ؟ أبوها ضابط في سلاح المهندسين ، وامها من العوائل الثرية في لفربول . كانت صيدا سهلا ، لقيتها وهي دون العشرين ، تدرس اللغات الشرقية في اكسفورد .

كانت خبة ، وجهها ذكي مرح وعيناها تبرقان بحب الاستطلاع . راتني فرات شفقا داكنا كفجر كاذب . كانت عكسي تحن الى مناخات استوائية ، وشموس قاسية ، وآفاق أرجوانية • كنت في عينهـــا رمزا لكل هذا الحنين • وأنا جنوب يحن الى الشمال والصقيع •

آن همند قضت طفولتها في مدرسة راهبات . عمتها زوجة نائب في البرلمان • حولتها في فراشي الى عاهرة • غرفة نومي مقبرة. تطل على حديقة ، ستائرها وردية منتقاة بعناية ، وسجاد سندسي دافيء والسرير رحب مخداته من ريش النعام . وأضواء كهربائية صغيرة ، حمراء ، وزرقاء ، وبنفسجية ، موضوعة في زوايا معينة . وعلى الجدران مرايا كبيرة ، حتى اذا ضاجعت امرأة ، بدا كأنني أضاجع حريما كاملا في آن واحد . تعبق في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند ، وفي الحمام عطور شرقية نفاذة ، وعقاقير كيماوية ، ودهون، ومساحيق ، وحبوب . غرفة نومي كانت مثل غرفة عمليات في مستشفى • ثمة بركة ساكنة في أعماق كل امرأة ، كنت أعرف كيف أحركها . وذات يوم وجدوها ميتة انتحارا بالغاز ووجدوا ورقة صغيرة باسمي ، ليس فيها سوى هذه العبارة : « مستر سعيد . لعنة الله عليك » • كان عقلي كأنه مدية حادة • وحملني القطار الى محطة فكتوريا ، والى عالم جين مورس

في قاعة المحكمة الكبرى في لندن ، جلست أسابيع أستمع الى المحـــامين يتحدثون عني ، كأنهم يتحـــدثون عن شخص لا يهمني أمره . كان المدعي العمومي سير آرثر هغنز عقل مريع ، أعرفه تمام المعرفة ، علمني القانون في أكسفورد ، ورأيته من قبل ، في هذه المحكمة نفسها وفي هذه القاعة ، يعتصر المتهمين في قفص الاتهـــام اعتصارا . نادرا ما كان يفلت متهم من يده . ورأيت متهمين يبكون ويغمى عليهم ، بعد أن يفرغ من استجوابهم . لكنه هذه المرة كان

يصارع جثة.

« هل تسببت فى انتحار آن همند ؟ »

« لا ادرى »

« وشيلا غرينود ؟ »

« لا ادرى »

« وايزابيلا سيمور ؟ »

« لا أدرى »

« هل قتلت جين مورس ؟ »

« نعم »

« قتلتها عمدا ؟ »

« نعم »

كان صوته كأنما يصلنى من عالم آخر . ومضى الرجل يرسم بحلق صورة مريعة لرجل ذئب ، تسبب فى انتحار فتاتين ، وحطم امرأة متزوجة ، وقتل زوجته ، رجل انانى ، انصبت حياته كلها على طلب اللذة . ومرة خطر لى فى غيبوتى ، وأنا جالس هناك أستمع الى استاذى ، برفسور ماكسول فستر كين ، يحاول أن يخلصنى من المشنقة ، ان أقف وأصرخ فى المحكمة : « هــذا المصطفى سعيد لا وجود له . انه وهم ، أكذوبة . واننى أطلب منكم أن تحــكموا بقتل الاكذوبة » . لكننى كنت هامدا مثــل كومة رماد . ومضى برفسور ماكسول فستركين يرسم صــورة فريدة لعقــل عبقرى دفعته الظروف الى القتل ، فى لحظة غيرة وجنون . روى لهم كيف اننى عينت محاضرا للاقتصاد فى جامعة لندن ، وأنا فى الرابعــة والعشرين . قال لهم أن آن همند وشيلا غرينود كانتا فتــاتين تبحثان عن الموت بكل سبيل ، وانهما كانتا ستنتحران سواء قابلتا مصطفى سعيد أو لم تقابلاه . « مصطفى سعيد يا حضرات المحلفين

انسان نبيل ، استوعب عقله حضارة الغرب ، لكنها حطمت قلبه . هاتان الفتاتان لم يقتلهما مصطفى سعيد ولكن قتلهما جرثوم مرض عضال اصابهما منذ الف عام » . وخطر لى ان أقف واقول لهم : « هذا زور وتلفيق . قتلتهما أنا . أنا صحراء الظمأ . انا لست عطيلا . انا اكذوبة . لماذا لا تحكمون بشنقى فتقتلون الاكذوبة ؟ » لكن برفسور فسترڤين حول المحاكمة الى صراع بين عالمين ، كنت أنا احدى ضحاياه . وحملنى القطار الى محطة فكتوريا ، والى عالم جين مورس .

لبثت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يزداد وتر القوس توترا . قربى مملوءة هواء ، وقوافلى ظماى ، والسراب يلمع أمامى فى متاهة الشوق ، وقد تحدد مرمى السهم ، ولا مفر من وقوع المأساة . وذات يوم قالت لى : « أنت ثور همجى لا يكل من الطراد . اننى تعبت من مطاردتك لى ، ومن جريى أمامك . تزوجنى » . وتزوجتها . غرفة نومى صارت ساحة حرب . فراشى كان قطعة من الجحيم . أمسكها فكأننى امسك سحابا ، كأننى أضاجع شهابا ، كأننى أمتطى صهوة نشيد عسكرى بروسى . وما تفتأ تلك الابتسامة المريرة على فمها . أقضى الليل ساهرا ، أخوض المعركة بالقوس والسيف والرمح والنشاب ، وفى الصباح ارى الابتسامة ما فتئت على حالها ، فاعلم اننى خسرت الحرب مرة أخرى . كأننى شهريار رقيق ، تشتريه فى السوق بدينار ، صادف شهر زاد متسولة فى انقاض مدينة قتلها الطاعون . كنت أعيش مع نظريات كينز وتونى بالنهار ، وبالليل أواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب. رأيت الجنود يعودون ، يملؤهم الذعر ، من حرب الخنادق والقمل والوباء . رأيتهم يزرعون بذور الحرب القادمة فى معاهدة فرساى ، ورأيت لويد جورج يضع أسس دولة الرفاهية العامة . وانقلبت

المدينة الى امرأة عجيبة ، لها رموز ونداءات غامضة ، ضربت اليها أكباد الابل ، وكاد يقتلنى فى طلابها الشوق . غرفة نومى ينبوع حزن ، جرثوم مرض فتاك . العدوى اصابتهن منذ الف عام ، لكننى هيجت كوامن الداء حتى استفحل وقتل . وكان المغنون يرددون اهازيج الحب الحقيقى والمرح فى مسارح لستر سكوير ، فلم يخفق لها قلبى . من كان يظن ان شيلا غرينود تقدم على الانتحار ؟ خادمة فى مطعم فى سوهو . بسيطة حلوة المبسم ، حلوة الحديث . أهلها قرويون من ضواحى هل . اغريتها بالهدايا والكلام المعسول ، والنظرة التى ترى الشيء فلا تخطئه . جذبها عالمى الجديد عليها . دوختها رائحة الصندل المخروق والند ، ووقفت وقتا تضحك لخيالها فى المرآة ، وتعبث بعقد العاج الذى وضعته كانشوطة حول جيدها الجميل . دخلت غرفة نومى بتولا بكرا ، وخرجت منها تحمل جرثوم المرض فى دمها . ماتت دون ان تنبس ببنت شفة . ذخيرتى من الامثال لا تنفد . البس لكل حالة لبوسها ، شنى يعرف متى يلاقى طبقه .

« أليس صحيحا انك فى الفترة ما بين اكتوبر ١٩٢٢ وفبراير ١٩٢٣ ، فى هذه الفترة وحدها على سبيل المثال ، كنت تعيش مع خمس نساء فى آن واحد ؟ »

« بلى » .

« وانك كنت توهم كلا منهن بالزواج ؟ »

« بلى » .

« وانك انتحلت اسما مختلفا مع كل منهن ؟ »

« بلى » .

« انك كنت حسن ، وتشارلز ، وأمين ، ومصطفى ، وركشارد ؟ »

« بلى » .

« ومع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن الاقتصاد المبنى على الحب لا على الارقام ؟ اليس صحيحا انك أقمت شهرتك بدعوتك الانسانية فى الاقتصاد ؟ »

« بلى » .

ثلاثون عاما . كان شجر الصفصاف يبيض ويخضر ويصفر فى الحدائق ، وطير الوقوق يغنى للربيع كل عام . ثلاثون عاما وقاعة البرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ ، والمطابع تخرج آلاف الكتب فى الفن والفكر . مسرحيات برنارد شو تمثل فى الرويال كورت والهيماركت . كانت ايدث ستول تغرد بالشعر ، ومسرح البرنس اف ويلز يفيض بالشباب والالق . البحر فى مده وجزره فى بورنمث وبرايتن ، ومنطقة البحيرات تزدهى عاما بعد عام . الجزيرة مثل لحن عذب ، سعيد حزين ، فى تحول سرابى مع تحول الفصول . ثلاثون عاما وأنا جزء من كل هذا ، اعيش فيه ، ولا أحس جماله الحقيقى ، ولا يعنينى منه الا ما يملأ فراشى كل ليلة ..

نعم . فى الصيف . قالوا ان صيفا مثله لم يأتهم منذ مائة عام . وخرجت من دارى يوم سبت اشمشم الهواء ، واحس باننى مقبل على صيد عظيم . وصلت ركن الخطباء فى حديقة هايد بارك . كان غاصا بالخلق . وقفت عن بعد أستمع الى خطيب من جزر الهند الغربية يتحدث عن مشكلة الملونين . استقرت عينى فجاة على امرأة تشرئب بعنقها لرؤية الخطيب ، فيرتفع ثوبها الى ما فوق الركبتين ، مظهرا ساقين ملتفتين من البرونز . نعم هذه فريستى . وسرت اليها ، كالقارب يسير الى الشلال . ووقفت وراءها ، والتصقت حتى أحسست بحرارتها تسرى الى . وشممت رائحة جسدها ، تلك الرائحة التى استقبلتنى بها مسز روبنسن على رصيف محطة القاهرة . والتزقت منها حتى احست بى . فالتفتت الى فجاة ، فابتسمت فى

وجهها ابتسامة لم أكن أعلم مصيرها ، لكننى عزمت على الا تضيع هباء . وضحكت أيضا ، حتى لا تنقلب الدهشة فى وجهها الى عداء فابتسمت .

ووقفت الى جانبها نحوا من ربع الساعة ، اضحك حين يضحكها قول الخطيب ، واضحك بصوت مرتفع لكى تسرى فيها عدوى الضحك ، حتى جاءت لحظة ، احسست فيها اننى وهى صرنا كفرس ومهرة ، يركضان فى تناسق ، جنبا الى جنب . وهنا خرج الصوت من حلقى ، كأنه ليس صوتى : « ما رأيك فى شراب ، بعيدا عن هذا الزحام والحر ؟ » أدارت رأسها بدهشة ، فابتسمت هذه المرة ابتسامة عريضة بريئة ، حتى أحول الدهشة الى حب استطلاع على الاقل . وفى أثناء ذلك تفرست فى وجهها ، فوجدت كل سمة من سماته يزيدنى اقتناعا بأن هذه فريستى . كنت أعلم ، بطبيعة المقامر ، ان تلك اللحظة حاسمة . كل شيء فى هذه اللحظة محتمل . وتحولت ابتسامتى الى سرور كاد يفلت زمامه من يدى حين قالت : « نعم . ولم لا ؟ » وسرنا معا ، أحس بها الى جانبى وهجا من البرونز تحت شمس يوليو ، أحس بها مدينة من الاسرار والنعيم .

وسرنى أنها تضحك بسهولة . هذه السيدة ، نوعها كثير فى أوربا ، نساء لا يعرفن الخوف ، يقبلن على الحياة بمرح وحب استطلاع ، وأنا صحراء الظمأ ، متاهة الرغائب الجنونية . وسألتنى ونحن نشرب الشاى عن بلدى . رويت لها حكايات ملفقة عن صحارى ذهبية الرمال ، وأدغال تتصايح فيها حيوانات لا وجود لها . قلت لها ان شوارع عاصمة بلادى تعج بالافيال والاسود ، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة . وكانت تستمع الى بين مصدقة ومكذبة . تضحك ، وتغمض عينيها ، وتحمر وجنتاها . واحيانا تصغى الى فى صمت ، وفى عينيها عطف مسيحى . وجاءت لحظة احسست فيها اننى انقلبت فى نظرها مخلوقا بدائيا عاريا ، يمسك بيده رمحا ،

وبالاخرى نشابا ، يصيد الفيلة والاسود فى الادغال . هذا حسن .
لقد تحول حب الاستطلاع الى مرح ، وتحول المرح الى عطف ، وحين احرك البركة الساكنة فى الاعماق ، سيستحيل المطف الى رغبة اعزف على أوتارها المشدودة كما يحلو لى . وسألتنى : «ما جنسك؟ هل انت افريقى ام أسيوى ؟ »

قلت لها : « انا مثل عطيل . عربى أفريقى » .

نظرت الى وجهى وقالت : « نعم . انفك مثل انوف العرب فى الصور . لكن شعرك ليس فاحما ناعما مثل شعر العرب » .

« نعم . هذا انا . وجهى عربى كصحراء الربع الخالى ، ورأسى افريقى يمور بطفولة شريرة » .

ضحكت وقالت : « أنت تصور الاشياء بشكل غريب » .

وقادنا الحديث الى أهلى ، فقلت لها ، غير كاذب هذه المرة ، اننى يتيم وليس لى أهل . ثم عدت الى الكذب ، فوصفت لها وصفا مهولا كيف فقدت والدى ، حتى رأيت الدمع يطفر الى عينيها . قلت لها اننى كنت فى السادسة من عمرى ، حين غرق والداى مع ثلاثين آخرين فى مركب كان يعبر بهم النيل من شاطىء الى شاطىء . وهنا حدث شىء كان أفضل من الرثاء . الرثاء فى مثل هذه الامور عاطفة غير مضمونة العواقب . لمعت عيناها ، وصاحت فى نشوة :

« نايل ؟ »

« نعم النيل » .

« انتم اذن تسكنون على ضفاف النيل ؟ »

« أجل ، بيتنا على ضفة النيل تماما بحيث اننى كنت ، اذا استيقظت على فراشى ليلا ، اخرج يدى من النافذة وأداعب ماء النيل حتى يغلبنى النوم » .

الطائر يا مستر مصطفى قد وقع فى الشرك . النيل ، ذلك الإله

الافعى ، قد فاز بضحية جديدة . المدينة قد تحولت الى امرأة . وما هو الا يوم او أسبوع ، حتى أضرب خيمتي ، واغرس وتدى في قمة الجبل • أنت يا سيدتي قد لا تعلمين ، ولكنك ، مثل كارنارفون حين دخل قبر توت عنخ آمون ، قد اصابك داء فتاك لا تدرين من اين اتى ، سيودى بك انِ عاجلا وان آجلا . ذخيرتي من الامثال لا تنفد . شنى يعرف متى يلاقى طبقه . واحسست بزمام الحديث في يدى ، كفنان مهره مطواع ، اشده فتقف ، أهزه فتمشى ، احركه فتتحرك وفقا لارادتي ، أن يمينا وان شمالا . وقلت لها :

« مضت ساعتـــان دون أن أحس بهما . لم أحس بمثل هذه السعادة منذ زمن بعيد . وبقى كثير اقوله لك وتقولينه لي . ما رأيك في أن نتمشى معا ، ونواصل الحديث ؟ »

صمتت برهة ، فلم أقلق ، لأنني أحسست بذلك الدفء الشيطاني ، تحت الحجاب الحـــاجز حين أحسه أعلم انني مسيطر على زمام الموقف . لا ، انها لن تقول لا . وقالت : « هذا لقاء عجيب . رجل غريب لا أعرفه يدعوني . هذا لا يجوز ، لكن .. » وصمتت ثم قالت : «نعم . لم لا ؟ هيئتك لا تدل على انك من آكلة لحوم البشر».

قلت لها ، وموجة الفرح تتحرك في جذور قلبي : « ستجدين انني تمساح عجوز سقطت اسنانه . لن اقوى على اكلك حتى لو اردت ». قدرت انني اصغرها بخمسة عشر عاما على الاقل ، امرأة في حدود الاربعين ، مهما حدثت لها من التجارب فان الزمن قد عامل جسدها بحنو . التجاعيد الدقيقة على جبهتها وعلى اركان فمها لا تقول لك انها شاخت ، بلْ تقول انها نضجت .

حينئذ فقط سألتها عن اسمها فقالت : « ايزابيلا سيمور » .

رددته مرتين ، وانا املأ به فمي ، كأنني آكل ثمرة كمثرى .

« وانت ما اسمك ؟ »

« أنا .. أمين . أمين حسن » .

« سأسميك حسن » .

ومع الشواء والنبيذ ، انفرجت أساريرها ، وتدفق حب تحس به نحو العالم بأسره ، على أنا . وأنا لايعنيني حبها للعالم ، ولاسحابة الحزن التي تعبر وجهها من آن لآن ، بقدر ما تعنيني حمرة لسانها حين تضحك ، واكتناز شفتيها ، والاسرار الكامنة في قاع فمها . وتخيلتها عارية ، وافحشت التخيل وهي تقول لي : « الحياة مليئة بالألم - لكن يجب علينا أن نتفاءل ، ونواجه الحياة بشجاعة » .

نعم أنا أعلم الآن ان الحكمة القريبة المنال ، تخرج من أفـواه البسطاء ، هي كل أملنا في الخلاص . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة . ذلك هو السر . صدقت يا سيدتي ، الشجاعة والتفـاؤل . ولكن الى أن يرث المستضعفون الارض ، وتسرح الجيوش ، ويرعى الحمل آمنا بجوار الذئب ، ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر ، الى أن يأتي زمان السعادة والحب هذا ، ساظل أنا اعبر عن نفسي بهذه الطريقة الملتوية . وحين اصل لاهثا قمة الجبل ، واغرس البيرق ، ثم التقط انفاسي واستجم ـ تلك يا سيدتي نشوة أعظم عندي من الحب ، ومن السعادة . ولهذا، فانا لا انوي بك شرا ، الا بقدر ما يكون البحر شريرا ، حين تتحطم السفن على صخوره ، وبقدر ما تكون الصاعقة شريرة حين تشـق الشجرة نصفين . وتركزت الفكرة الأخيرة في راسي ، بشعيرات على ذراعها الايمن ، قريبا من الرسغ ، ولاحظت أن شعر ذراعيها اكثف مما هو عند النساء عادة ، وقادني هذا الى شعر آخر . لا بد انه ناعم غزير مثل نبات السعدة على حافة الجدول . وكأنما سرت الفكرة من ذهني اليها ، فاعتدلت في جلستها وقالت : « ما بالك تبدو حزينا ؟ »

« هل أبدو حزينا ؟ أنا على العكس ، سعيد جدا » .

وعادت النظرة الحبـانية الى عينيها ، ومدت يدها فامسكت يدى وقالت · « هل تدرى أن أمى أسبانية ؟ »

« هذا اذن يفسر كل شيء · يفسر لقاءنا صدفة ، وتفاهمنا تلقائيا ، كأننا تعارفنا منذ قرون . لابد أن جدى كان جنديا فى جيش طارق ابن زياد · ولابد انه قابل جدتك ، وهى تجنى العنب فى بستان فى اشبيلية . ولابد انه أحبها من أول نظرة ، وهى ايضا احبته . وعاش معها فترة ثم تركها وذهب الى افريقيا . وهناك تزوج . وخرجت انا من سلالته فى افريقيا ، وانت جئت من سلالته فى أسبانيا » .

هذا الكلام ، والضوء الخافت أيضا والنبيذ ، أسعدها ، فقرقرت لهاتها بالضحك وقالت :

« يا لك من شيطان » .

وتخيلت برهة لقاء الجنودِ العرب لأسبانيا · مثلى فى هذه اللحظة، اجلس قبالة ايزابيلا سيمور ، ظمأ جنونى تبدد فى شعاب التاريخ فى الشمال . انما انا لا أطلب المجد ، فمثلى لا يطلب المجد .

وادرت مفتاح الباب بعد شهر من حمى الرغبة ، وهى الى جانبى، اندلس خصب ، وقدتها بعد ذلك عبر الممر القصير الى غرفة النوم ، ولفحتها رائحة الصندل المحروق والند ، فملأت رئتيها بعبير لم تكن تعلم انه عبير قاتل . كنت تلك الايام ، حين تصبح القمة منى على مد الذراع ، يعتريني هدوء تراجيدى . كل الحمى والوجيب فى القلب ، والتوتر فى العصب ، يتحول الى هدوء جراح وهو يشق بطن المريض . وكنت أعلم ان الطريق القصير الذى سرناه معا الى غرفة النوم ، كان بالنسبة لها طريقا مضيئا ، يعبق بعبير التسامح والمحبة ، وكان بالنسبة لى الخطوة الأخيرة ، قبل الوصول الى قمة الانانية . وتريثت عند حافة الفراش ، كأننى الخص تلك اللحظة فى

ذهني ، والقيت نظرة موضوعية على الستائر الوردية والمراءات الكبيرة ، والاضواء الحذرة في أركان الحجرة ، ثم على تمثال البرونز المكتمل التكوين أمامي . ونحن في قمة المأساة صرخت بصوت ضعيف: « لا . لا » . هذا لا يجديك نفعا الآن . لقد ضاعت اللحظة الخطيرة حين كان بوسعك الامتناع عن اتخاذ الخطوة الاولى . انني أخذتك على غرة ، وكان بوسعك حينئذ ان تقولي « لا » . أما الآن فقد جرفك تيار الاحداث ، كما يجرف كل انسان ، ولم يعد في مقدورك فعل شيء . لو ان كل انسان عرف متى يمتنع عن إتخاذ الخطوة الاولى ، لتغيرت أشياء كثيرة . هل الشمس شريرة حين تحيل قلوب ملايين البشر الى صحارى تتعاور رمالها ويجف فيها حلق العندليب ؟ وتريثت وانا امسح براحة يدي ظاهر عنقها ، واقبلها في منابع الاحساس . ومع كل لمسة ، مع كل قبلة ، احس ان عضلة في جسدها ترتخي ، وتالق وجهها ولمعت عيناها ببريق خاطف ، واستطالت نظراتها كانها تنظر الى فتراني رمزا ليس حقيقة ، وسمعتها تقول لي بصوت متضرع مستسلم : « احبك » ، فجاوب صوتها هتاف ضعيف في اعماق وعيي يدعوني ان اقف . لكن القما صارت على بعد خطوة ، وبعد ذلك التقط انفاسي واستجم . ونحن في قمة الألم عبرت براسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة مالحة وسط الصحراء . وانفجرت هي ببكاء ممض محرق واستسلمت انا الى نوم متوتر محموم .

(٣)

كانت ليلة قائظة من ليالي شهر يوليو ، وكان النيل قد فاض ذلك العام احد فيضاناته تلك ، التي تحدث مرة كل عشرين او ثلاثين سنة، وتصبح اساطير يحدث بها الآباء ابناءهم • وغمر المـــاء اغلب الارض الممتدة بين الشاطيء وطرف الصحراء حيث تقوم البيوت ، وبقيت الحقول كجزيرة وسط الماء • وكان الرجال يتنقلون بين البيـــوت والحقول في قوارب صغيرة ، او يقطعون المسافة سباحة • وكان مصطفى سعيد حسب علمي يجيد الســباحة • حدثني أبي ، فقــد كنت في الخرطوم وقتها ، انهم سمعوا بعد صلاة العشاء صراخ نسوة في الحي ، فهرعوا الى مصدر الصوت فاذا الصراخ في دار مصطفى سعيد • كان من عادته ان يعود من حقله مع مغيب الشمس ، ولكن زوجته انتظرت دون جدوى • وذهبت تسأل عنه هنا وهنـــاك ، فاخبروها انهم رأوه في حقله والبعض ظن انه عاد الى بيته مع بقية الرجال • وانكبت البلد كلها على الشـــاطيء • الرجال في ايديهم المصابيح وبعضهم في القـــوارب • وظلوا يبحثون الليل كله دون جدوى • وارسلوا اشارات تليفونية الى مركز البوليس على امتداد النيل حتى كرمه • ولكن الجثث التي حملها الموج الى الشاطيء ذلك الاسبوع لم تكن بينها جثة مصطفى سعيد • وفي النهاية اخلدوا الى الرأي انه لابد قد مات غرقا ، وأن جثمانه قد اســتقر في بطـــون التماسيح التي يغص بها الماء في تلك المنطقة •

أما أنا ، فانه يخامرني ذلك الاحساس الذي اعتراني ليلة سمعته ،

فجأة وعلى غير استعداد مني ، يقرأ شعرا انكليزيا ، وهو ممسك كأس الخمر بيده ، دافنا قامته في الكرسي ، ممددا رجليه ، ضـوء المصباح ينعكس على وجهه ، وعيناه سارحتان، كما خيل لى فى آفاق داخل نفسه ، والظلام حولنا فى الخارج كأنه قوى شيطانية تتضافر على خنق ضوء المصباح • احيانا تخطر لى فجأة تلك الفكرة المزعجة ان مصطفى سعيد لم يحـــدث اطلاقا ، وانه فعلا أكذوبة ، أو طيف أو حلم ، أو كابوس ، الم بأهل القرية تلك ، ذات ليلة داكنة خانقة ، ولما فتحوا اعينهم مع ضوء الشمس لم يروه •

كان الليل قد بقي اقله حين قمت من عند مصطفى سعيد •وخرجت وأنا أشـــعر بالتعب ــ ربما من طول الجلوس ــ ومع ذلك لم أكن أرغب فى النوم • فمضيت اتسكع في شوارع البلد الضيقة المتعرجة، تلامس وجهي نسمات الليل الباردة التى تهب من الشـــمال محملة بالندى ، محملة برائحة زهور الطلع وروث البهائم ، ورائحة الارض التى رويت لتوها بالماء بعد ظمأ ايام ، ورائحة قناديل الـــذرة فى منتصف نضجها ، وعبير أشجار الليمـــون • كان البلد كعـــادته صامتا في تلك الساعة من الليل ، الا من طقطقة مكنة الماء على الشاطىء ونباح كلب من حين لآخر ، وصياح ديك منفرد احس بالفجر قبـل الاوان ، يجاوبه صياح ديك آخر ، ثم يخيم الصمت • ومررت ببيت ود الريس الوطىء عند منعطف الدرب ، فرأيت من الطاقة الصغيرة ضوءا خافتا ، وسمعت زوجة ود الريس تصرخ باللذة • واحسست بالخجل ، لانني اطلعت على أمر لم يكن من حقى أن أطلع عليـه • لـم يكن يحق لى ان اظل يقظا اتسكع فى شوارع البلد ، وبقية الناس فى اسرتهم،انني اعرف هذه القرية شارعا شارعا ، وبيتا بيتا ، واعرف ايضا القباب العشر وسط المقبرة فى طرف الصحراء اعلى البلد • والقبور ايضا ، اعرفها واحدا واحدا ، زرتها مع ابى وزرتها مع امى

وزرتها مع جدى ، واعرف ساكنيها الذين ماتوا قبل ان يولد ابى والذين ماتوا بعد ولادتى • وقد شيعت مع المشيعين منهم اكثر من مائة ، أساعد فى حفر التربة ، واقف على حافة القبر فى زحام الناس ريثما يوسد الميت بحجارته ، واهيل التراب • فعلت ذلك مع اهل البلد فى الصباح ، وفى حمارة القيظ أشهر الصيف ، وبالليـــل فى ايدينا المصابيح • والحقول ايضا اعرفها ، منذ كانت سواقى ، وايام القحط حين هجرها الرجال وتحولت الارض الخصبة ارضا بلقعـــا تسفوها الريح • ثم جاءت مكنات الماء وجاءت الجمعيات التعاونية ، وعاد من نزح من الرجال ، وعادت الارض كما كانت ، تنتج الذرة فى الصيف والقمح فى الشتاء • كل هــــذا رأيتــه منذ لتحت عينى على الحياة ، ولكننى أبدا لم أر القرية فى مثل هذه الساعة فى أواخــر الليل • لابد ان تلك النجمة الكبيرة الزرقاء المتوهجة هى نجمــــة الصباح • السماء تبدو أقرب الى الارض فى مثل هذه الساعة ، قبيل الفجر ، والبلد يلفها ضوء باهت يجعلها كأنها معلقة بين الســــماء والارض • وتذكرت وانا اعبر رقعة الرمل التى تفصل بين بيت ود الريس وبيت جدى ، تلك الصورة التى رسمها مصطفى سعيد ، تذكرتها بنفس احساس الخجل الذى اعترانى حين سمعت مناغاة ود الريس مع زوجته • فخذان بيضاوان مفتوحتان • ووصلت عند بيت جدى فسمعته يتلو أوراده استعدادا لصلاة الصبح • الا ينام ابدا ؟ صوت جدى يصل ، كان آخر صوت اسمعه قبل ان انام واول صوت أسمعه حين أستيقظ • وهو على هذه الحال لا أدرى كم من الســنين كأنه شىء ثابت وسط عالم متحرك • واحسست فجأة بروحى تنتعش كما يحدث احيانا اثر ارهاق طويل ، وصفا ذهنى ، وتبخرت الافكار السوداء التى آثارها حديث مصطفى سعيد • البلد الآن ليس معلقــا بين السماء والارض ، ولكنه ثابت ، البيوت ثابتة ، والشــــجر شجر ،

والسماء صافية ولكنها بعيدة • هل كان من المحتمل ان يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد ؟ قال انه اكذوبة ، فهل انا ايضا اكذوبة ؟ انني من هنا • اليست هذه حقيقة كافية ؟ لقد عشت ايضا معهم ، ولكنني عشت معهم على السطح ، لا احبهم ولا اكرههم • كنت اطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة ، اراها بعين خيالي اينما التفت • احيانا في أشهر الصيف في لندن ، أثر هطلة مطر ، كنت اشم رائحتها • في لحظات خاطفة قبيل مغيب الشمس ، كنت أراها • في آخريات الليل ، كانت الاصوات الاجنبية تصل الى اذني كأنها أصوات أهلي هنا • انا ، لابد ، من هذه الطيور التي لا تعيش الا في بقعة واحدة من العالم •• صحيح انني درست الشعر ، بيد ان هذا لا يعني شيئا • كان من الممكن ان ادرس الهندسة او الزراعة او الطب • كلها وسائل لكسب العيش • الوجوه هناك ، كنت اتخيلها، قمحية أو سوداء ، فتبدو وجوها لقوم اعرفهم • هناك مثل هنا ، ليس احسن ولا اسوأ • ولكنني من هنا ، كما ان النخلة القائمة في فناء دارنا ، نبتت في دارنا ولم تنبت في دار غيرها • وكونهم جاءوا الى ديارنا ، لا ادري لماذا ، هل معنى ذلك اننا نسمم حاضرنا ومستقبلنا انهم سيخرجون من بلادنا ان عاجلا أو آجلا ، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة • سكك الحديد ، والبواخر ،والمستشفيات والمصانع ، والمدارس ، ستكون لنا ، وسنتحدث لغتهم ، دون احساس بالذنب ولا احساس بالجميل • سنكون كما نحن ، قوم عاديون ، واذا كنا اكاذيب ، فنحن اكاذيب من صنع انفسنا •

مثل هذه الافكار اوصلتني الى فراشي ، وصاحبتني بعد ذلك الى الخرطوم حيث تسلمت عملي في مصلحة المعارف • مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكنني ما افتأ اقابله من حين لآخر • لقد عشت خمسة وعشرين عاما ، وأنا لم أسمع به ولم أره • ثم ، هكذا فجأة

أجده فى مكان لا يوجد فيه أمثاله . واذا بمصطفى سعيد ، رغم ارادتى ، جزء من عالمى ، فكرة فى ذهنى ، طيف لا يريد أن يمضى فى حال سبيله . واذا احساس بعيد بالخوف ، بانه من الجائز الا تكون البساطة هى كل شيء . مصطفى سعيد قال ان جدى يعرف السر . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة . هكذا . لكن هب انه كان يسخر من بساطتى ؟ فى رحلة بالقطار بين الخرطوم والابيض ، كان معى فى نفس القمرة موظف متقاعد . حين تحرك القطار من كوستى كان الحديث قد وصل بنا الى ايام دراسته. وعلمت منه ان عددا من رؤسائى فى وزارة المعارف كانوا معاصريه فى المدرسة ، وبعضهم كان يزامله فى نفس الفصل . ومضى الرجل يذكر ان فلانا فى وزارة الزراعة كان زميله ، والمهندس فلانا كان فى الفصل الذى أمامه ، وفلانا ، التاجر الذى اغتنى ايام الحرب ، كان من ابلد خلق الله فى فصلهم ، والجراح الشهير فلانا كان احسن جناح ايمن فى المدرسة كلها ايامهم . وفجأة ، رأيت وجه الرجل يضيء ، وعينيه تلمعان ، وقال فى صوت متحمس منفعل : « غريبة . تصور اننى نسيت انبغ تلميذ فى فصلنا ، ولم يخطر على بالى منذ تركت المدرسة . الآن فقط تذكرته . نعم ، مصطفى سعيد » .

مرة أخرى ، ذلك الاحساس ، بأن الاشـــياء العادية أمام عينيك تصبح غير عادية . رأيت نافذة القمرة وبابها يلتقيان ، وخيل لى ان الضوء المنعكس على نظارة الرجل ، فى لحظة لا تزيد عن طرفة العين، توهج توهجا خاطفا كأنه شمس فى رابعة النهار . ولابد ان الدنيا فى تلك اللحظة بدت مختلفة بالنسبة للمأمور المتقاعد ايضا ، اذ ان تجربة كاملة كانت خارج وعيه اصبحت فجأة فى متناول اليد . حين رأيت وجهه أول مرة ، قدرت انه فى منتصف الستين . وانظر اليه الآن وهو يستطرد فى سرد ذكرياته البعيدة ، فأرى رجلا لا يزيد يوما

واحدا عن الاربعين .

«نعم ، مصطفى سعيد كان أنبغ تلميذ فى أيامنا . كنا فى فصل واحد . كان يجلس فى الصف الذى امام صفنا مباشرة . ناحية اليسار . يا للغرابة ، كيف لم يخطر على بالى قبل الآن مع انه كان معجزة فى ذلك الوقت ؟ كان اشهر طالب فى كلية غردون ، اشهر من اعضاء التيم لكرة القدم ، ورؤساء الداخليات ، والخطباء فى الليالى الادبية ، والكتاب فى جرائد الحائط ، والممثلين الذائعى الصيت فى فرق الدراما . لم يكن له نشاط من هذا القبيل اطلاقا . كان منعزلا ومتعاليا ، يقضى اوقات فراغه وحده ، اما فى القراءة او فى المشى مسافات طويلة . كنا جميعا داخليين تلك الايام ، فى كلية غردون حتى أبناء العاصمة المثلثة . كان نابغة فى كل شىء ، لم يوجد شىء يستعصى على ذهنه العجيب . كان المدرسون يكلموننا بلهجة ويكلمونه هو بلهجة أخرى . خصوصا مدرسو اللغة الانجليزية ، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ . »

وصمت الرجل برهة ، فأحسست برغبة شديدة أن اقول اننى أعرف مصطفى سعيد ، وأن الظروف القت بى فى طريقه ، فقص على ذات ليلة مظلمة قائظة ، قصة حياته ، وانه قضى آخر أيامه فى قرية مغمورة الذكر عند منحنى النيل ، وانه مات غرقا ، وربما انتحارا وجعلنى أنا دون سائر الناس وصيا على ولديه . لكننى لم أقل شيئا انما المأمور المتقاعد هو الذى استطرد :

« قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم فى السودان قفزا — كان بالفعل كأنه يسابق الزمن . وبينما ظللنا نحن بعده فى كلية غردون أرسل هو فى بعثة الى القاهرة وبعدها الى لندن . كان أول سودانى يرسل فى بعثة الى الخارج . كان ابن الانكليز المدلل . وكنا جميعا نحسده ، ونتوقع أن يصير له شأن عظيم . نحن كنا ننطق الكلمات

الانكليزية كأنها كلمات عربية . لا نستطيع ان نسكن حرفين متتاليين . أما مصطفى سعيد فقد كان يعوج فمه ، ويمط شــفتيه ، وتخرج الكلمات من فمه كما تخــرج من افواه أهلها . كان ذلك يملؤنا غيظا واعجــابا في الوقت نفسه . وكنا نطلق عليــه ، بخليط من الاعجاب والحقد « الانكليزى الاسود » . وعلى ايامنا ، كانت اللغة الانكليزية هى مفتاح المستقبل – لا تقوم لأحد قائمة بدونها . كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية . كانوا يعطونها من العلم ما يكفى فقط لملء الوظائف الحكومية الصغرى – أول ما تخرجت ، اشتغلت محاسبا فى مركز الفاشر . وبعد جهد جهيد قبلوا ان أجلس لامتحان الادارة . وقضيت ثلاثين عاما نائب مأمور . تصور . وقبل ان احال على المعاش بعامين اثنين فقط رقيت مأمورا . كان مفتش المركز الانكليزى الها يتصرف فى رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها ، يسكن فى قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند . وكانوا يتصرفون كالآلهة . يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد . ويتذمر الناس منا ويشكون الى المفتش الانكليزى . وكان المفتش الانكليزى طبعا هو الذى يغفر ويرحم . هكذا غرسوا فى قلوب الناس بغضنا ، نحن ابناء البلد ، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء . وتأكد من كلامى هذا يا بنى . ألم تستقل البلد الآن ؟ ألم نصبح احرارا فى بلادنا ؟ تأكد انهم احتضنوا أرذال الناس . ارذال الناس هم الذين تبوأوا المراكز الضخمة أيام الانكليزى . كنا واثقين ان مصطفى سعيد سيصير له شأن يذكر . كان أبوه من العبابدة ، القبيلة التى تعيش بين مصر والسودان . انهم الذين هربوا سلاطين باشا من اسر الخليفة عبد الله التعايشى ، ثم بعد ذلك عملوا روادا لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان . ويقال ان أمه كانت رقيقا من الجنوب . من قبائل الزاندى او الباريا ، الله أعلم . الناس الذين ليس لهم أصــل ، هم الذين تبوأوا أعلى المراتب أيام الانكليز » .

وكان المامور المتقاعد يغط في نوم مريح ، حين مر القطار على خزان سنار ، الخزان الذى بناه الانكليز عام ١٩٢٦ ، متجها غربا الى الابيض ، على خط حديدي وحيد ، ممتد عبر الصحراء ، كأنه جسر من الحبال بين جبلين شرسين ، بينهما هوة سحيقة ليس لها قرار . مسكين مصطفى سعيد . كان مفروضا ان يكون له شأن بمقاييس المفتشين والمامير . ولكنه لم يجد حتى قبرا يريح جسده ، في هذا القطر الممتد مليون ميل مربع . وتذكرت ما قاله ان القاضي قبل ان يصدر عليه الحكم في الاولد بيلي قال له : « انك يا مستر مصطفى سعيد ، رغم تفوقك العلمي ، رجل غبي . ان في تكوينك الروحي بقعة مظلمة ، لذلك فانك قد بددت انبل طاقة يمنحها الله للناس : طاقة الحب » . وتذكرت ايضا انني حين خرجت من بيت مصطفى سعيد تلك الليلة ، كان القمر الماحق قد ارتفع مقدار قامة الرجل في الافق الشرقي ، وانني قلت في نفسي ان القمر مقلم الاظافر . لا ادرى لماذا خيل لي ان القمر مقلم الاظافر ؟

وفي الخرطوم أيضا ، عرض لي طيف مصطفى سعيد ، بعد محادثتي مع المامور المتقاعد باقل من شهر ، كانه جن أطلق من سجنه ، سيظل بعد ذلك يوسوس في آذان البشر ، ليقول ماذا ؟ لا ادرى . كنا في بيت شاب سوداني يحاضر في الجامعة ، كنا انا وهو زملاء دراسة في انكلترا . وكان بين الحاضرين رجل انكليزي يعمل في وزارة المالية . وصل بنا الحديث الى موضوع الزواج المختلط . وتحول الحديث من نقاش عمومي الى كلام عن حالات محددة . ثم من هم المتزوجون من أوربيات ؟ ثم من انكليزيات ؟ من هو اول سوداني تزوج انكليزية ؟ فلان ؟ لا . فلان ؟ لا . وفجاة . . . مصطفى سعيد . قالها الشاب المحاضر في الجامعة ، وعلى وجهه احساس الفرح ذاته الذى لمحته على وجه المامور المتقاعد . ومضى الشاب يقول ، تحت سماء الخرطوم

المرصعة بالنجوم فى اوائل فصل الشتاء : « مصطفى سعيد كان اول سودانى تزوج انكليزية ، بل انه كان أول سودانى تزوج أوربية اطلاقا . اظن انكم لم تسمعوا به ، فقد نزح من زمن . تزوج فى انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية . غريب ان أحدا هنا لا يذكره ، مع انه قام بدور خطير فى مؤامرات الانكليز فى السودان فى أواخر الثلاثينات . انه من اخلص اعوانهم . وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية فى سفارات مريبة الى الشرق الاوسط . وكان من سكرتيرى المؤتمر الذى انعقد فى لندن سنة ١٩٣٦ . انه الآن مليونير ، ويعيش كاللوردات فى الريف الانكليزى » .

« وسمعت نفسى أقول دون وعى ، بصوت مسموع : مصطفى سعيد ترك ، بعد موته ، ستة أفدنة ، وثلاث بقرات ، وثورا ، وحمارين ، واحدى عشرة عنزا ، وخمس نعجات ، وثلاثين نخلة ، وثلاثا وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحراز ، وخمسا وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال ، وتسعة أرادب قمح وتسعة ذرة ، وبيتا مكونا من خمس غرف ، وديوان ، وغرفة واحدة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات نوافذ خضراء ، سقفها ليس مسطحا كبقية الغرف ولكنه مثلث كظهر الثور ، وتسعمائة وسبعة وثلاثين جنيها وثلاثة قروش وخمسة ملاليم نقدا » .

فى لحظة لا تزيد عن مقدار ما يشيل البرق ثم يختفى ، رأيت فى عينى الشاب الجالس قبالتى شعورا واضحا حيا ملموسا ، بالذعر . رايته فى اتساع حدق العينين ، وارتعاش الجفن ، وارتخاء الفك الاسفل . اذا لم يكن خائفا فلماذا سالنى هذا السؤال : « هل انت ابنه ؟ » .

سالنى هكذا دون أن يدرى هو الآخر لماذا نطق بهذه الكلمات الثلاث ، وهو يعلم تمام العلم من انا . انه لم يكن زميلى فى الدراسة ،

لكننا كنا فى انجلترا فى وقت واحد ، وقد جمعتنا مناسبات عدة وشربنا البيرة اكثر من مرة معا ، فى حانات نايتسبردج . هكذا ، فى لحظة خارج حدود الزمان والمكان ، تبدو له الاشياء هو الآخر ، غير حقيقية . يبدو له كل شيء محتملاً . هو أيضــا قد يكون ابن مصطفى سعيد ، أو أخاه أو ابن عمه . العالم فى تلك اللحظة القصيرة ، بمقدار مايطرف جفن العين ، احتمالات لا حصر لها ، كأن آدم وحواء سقطا لتوهما من الجنــة .

كل تلك الاحتمالات استقرت على حال واحد حين ضحكت ، وعاد العالم كما كان ، اشخاصا ذوى وجوه معروفة واسماء معروفة ومهن معروفة ، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم أوائل فصــل الشتاء . ضحك هو الآخر وقال : « يالى من مجنون ! طبعــا أنت لست ابن مصطفى سعيد ولا قريبه وأنت لم تسمع به من قبــل فى حياتك . اننى نسيت انكم ، معشر الشــعراء ، لكم سرحات وشطحات » .

وفكرت فى شيء من المرارة ، اننى فى زعم الناس شاعر ــ سواء أردت أو لم أرد ، لأننى قضيت ثلاثة أعوام انقب فى حياة شــاعر مغمور من شعراء الانكليز ، وعدت لادرس الادب الجاهلى فى المدارس الثانوية قبل ان يرقونى مفتشا للتعليم الابتدائى .

وهنا تدخل الرجل الانكليزى وقال انه لا يدرى صحة ما قيل عن الدور الذى لعبه مصطفى سعيد فى مؤامرات السياسة الانكليزية فى السودان . الذى يعلمه ان مصطفى سعيد لم يكن اقتصاديا يركن اليه : « اننى قرأت بعض ما كتب عما اسماه اقتصاد الاستعمار » الصفة الغالبة على كتاباته ان احصائياته لم يكن يوثق بها . كان ينتمى الى مدرسة الاقتصاديين الفابيانيين الذين يختفون وراء ستار التعميم هروبا من مواجهة الحقائق المدعمة بالارقام . العدالة ، المساواة الاشتراكية .. مجرد كلمات . رجل الاقتصاد ليس كاتبا كتشارلز

دكتور ، ولا سياسيا كروزفلت . انه اداة ، آلة ، لا قيمة لهـــا بدون الحقائق والارقام والاحصائيات . اقصى ما يستطيع ان يفعله هو ان يحدد العلاقة بين حقيقة واخرى ، بين رقم وآخر . اما ان تجعـل الارقام تقول شيئا دون آخر ، فذلك شأن الحكام ورجال السياسة . الدنيا ليست فى حاجة الى مزيد من رجال السياسة . لا . مصطفى سعيد هذا لم يكن اقتصاديا يوثق به » .

وسألته ان كان قد قابل مصطفى سعيد .

« لا . اننى لم أقابله . كان قد ترك اكسفورد قبل بمدة . لكننى سمعت نتفا هنا وهناك . يظهر انه كان زير نساء . خلق لنفســـه أسطورة من نوع ما . الرجل الاسود الوسيم ، المدلل فى الاوساط البوهيمية . كان كما يبدو واجهة يعرضها افراد الطبقة الارستقراطية الذين كانوا فى العشرينات وأوائل الثلاثينات يتظاهرون بالتحرر . ويقال انه كان صديقا للورد فلان ولورد علان . وكان أيضـــا من الاثيرين عند اليسار الانكليزى . ذلك من سوء حظه ، لانه يقال انه كان ذكيا . لا يوجد على وجه الارض أسوأ من الاقتصاديين اليساريين حتى منصبه الاكاديمى — لا ادرى تماما ماذا كان — يخيل الى انه حصل عليه لاسباب من هذا النوع . كأنهم أرادوا أن يقولوا : أنظروا كم نحن متسامحون ومتحررون ! هذا الرجل الافريقى كأنه واحد منا ! انه تزوج ابنتنا ويعمل معنا على قدم المساواة ، هذا النوع من الاوربيين لا يقل شرا ، لو تدرون ، عن المجانين الذين يؤمنون بتفوق الرجل الابيض فى جنوبى افريقيا وفى الولايات الجنوبية فى الولايات المتحدة . نفس الطاقة العاطفية المتطرفة ، تتجه الى أقصى اليمين أو أقصى اليسار . لو انه فقط تفرغ للعلم لوجد أصدقاء حقيقيين منجميع الاجناس ، ولكنتم قد سمعتم به هنا . كان قطعا سيعود وينفع بعلمه هذا البلد الذى تتحكم فيه الخرافات . ها انتم الآن تؤمنون بخرافات من نوع جديد . خرافة التصنيع ، خرافة التأميم ، خرافة الوحدة

العربية ، خرافة الوحدة الافريقية . انكم كالاطفال تؤمنــــون أن فى جوف الارض كنزا ستحصلون عليه بمعجزة ، وســـتحلون جميع مشاكلكم ، وتقيمون فردوســـا . أوهام . أحـــلام يقظة . عن طريق الحقائق والارقام والاحصائيات ، يمكن ان تقبلوا واقعكم وتتعايشوا معه وتحاولوا التغيير فى حدود طاقاتكم . وقد كان بوسع رجل مثل مصطفى سعيد ان يلعب دورا لا باس به فى هذا السبيل ، ولو انه لم يتحول الى مهرج بين يدى حفنة من الانكليز المعتوهين » .

وبينما انبرى منصور يفند آراء رتشارد ، أخلدت أنا الى افكارى ما جدوى النقاش ؟ هذا الرجل ـ رتشارد ـ هو الآخر متعصب . كل احد متعصب بطريقة او باخرى . لعلنـــا نؤمن بالخرافات التى ذكرها ، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة ، خرافة عصرية ، هى خـــرافة الاحصائيات . ما دمنا سنؤمن باله ، فليكن الها قادرا على كل شىء . اما الاحصائيات ؟ الرجل الابيض ، لمجرد انه حكمنـــا فى حقبة من تاريخنا ، سيظل أمدا طويلا يحس نحونا باحساس الاحتقار الذى يحسه القوى تجاه الضعيف . مصطفى ســـــعيد قال لهم : « اننى جئتكم غازيا » . عبارة ميلودرامية ولا شك . لكن مجيئهم ، هم ايضا ، لم يكن مأساة كما نصور نحن ، ولا نعمة كما يصورون هم . كان عملا ميلودراميا سيتحول مع مرور الزمن الى خـــــرافة عظمى وسمعت منصور يقول لرتشارد : لقد نقلتم الينا مرض اقتصـــــادكم الرأسمالى . ماذا اعطيتمونا غير حفنة من الشركات الاســـتعمارية نزفت دماءنا وما تزال ؟ » وقال له رتشارد : « كل هذا يدل على انكم لا تستطيعون الحياة بدوننا . كنتم تشكون من الاستعمار، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار المستتر . يبدو ان وجودنا ، بشكل واضح أو مستتر ، ضرورى لكم كالماء والهواء » . ولم يكونا غاضبين . كانا يقولان كلاما مثل هذا ويضحكان على مرمى حجر من خط الاستواء ، تفصل بينهما هوة تاريخية ليس لها قرار .

(٤)

لكن أرجو الا يتبادر الى أذهانكم ، يا سادتي ، ان مصطفى سعيد أصبح هوسا يلازمني في حلي وترحالي . كانت أحيانا تمر اشهر دون أن يخطر على بالي انه مات على أي حال ، غرقا ، أو انتحارا . الله وحده يعلم . آلاف الناس يموتون كل يوم . ولو وقفنا نتمعن لماذا مات كل منهم ، وكيف مات - ماذا يحدث لنا نحن الاحياء ؟ الدنيـا تسير ، باختيارنا أو رغم انوفنا . وأنا كملايين البشر ، اسير ، اتحرك بحكم العادة في الغالب ، في قافلة طويلة ، تصعد وتنزل ، تحط وترحل . والحياة في هذه القافلة ليست كلها شرا . انتم ولا شك تدركون ذلك . قد يكون السير شاقا بالنهار ، البوادي تترامى امامنا كبحور ليس لها ساحل . نتصبب عرقا ، وتجف حلوقنا من الظمأ ، ونبلغ الحد الذي نظن ان ليس بعده متقدم . ثم تغيب الشمس ، ويبرد الهواء ، وتتألق ملايين النجوم في السماء . نطعم ونشرب حينئذ ، ويغني مغني الركب . بعضنا يصلي جماعة وراء الشيخ ، وبعضنا يتحلق حلقات يرقصون ويغنون ويصفقون . وفوقنا سماء دافئة رخيمة . واحيانا نسري بالليل ما طاب لنا السرى ، وحين يبين الخيط الابيض من الخيط الاسود نقول : « عند انبلاج الصبح يحمد القوم السرى » . واذا كان السراب أحيانا يخدعنا ، واذا كانت رؤوسنا المحمومة بفعـل الحر والعطش تفور أحيانا بأفكار لا أساس لها من الصحة ، فلا جرم . اشباح الليل تتبخر مع الفجر ، وحمى النهار تبرد مع نسيم الليل . هل ثمة وسيلة اخرى غير هذه ؟ هكذا كنت اقضي شهرين كل سنة في

تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل . النهر بعد ان كان يجرى من الجنوب الى الشمال ، ينحنى فجاة فى زاوية تكاد تكون مستقيمة ، ويجرى من الغرب الى الشرق . المجرى هنا متسع وعميق ، ووسط الماء جزر صغيرة مخضرة ، تحوم عليها طيور بيضاء . وعلى الشاطئين غابات كثيفة من النخل ، وسواقى دائرة ، ومكنة ماء من حين لآخر . الرجال صدورهم عارية ، يلبسون سراويل طويلة ، يقطعون او يزرعون حين تمر بهم الباخرة كقلعة عائمة وسط النيل يرفعون قاماتهم ويلتفتون اليها برهة ثم يعودون الى ما كانوا فيه . انها تمر على هذا المكان وقت الضحى ، مرة فى الاسبوع ، وما تزال فى ظلال النخل المنعكسة على الماء بقية تتكسر حين يهزها الموج الذى تحدثه محركات الباخرة . وتنطلق صفارة مبحوحة ، سيسمعها أهلى ولا شك فى دورهم وهم يشربون قهوة الضحى . من بعيد تبدو المحطة . رصيف أبيض عليه طابور من شجر الجميز . وتلمح على الشاطئين حركة واضحة . بعض الناس على الحمير وبعضهم على الاقدام ، وقوارب ومراكب شراعية تتحرك من الشاطىء المقابل للمحطة . تدور الباخرة حول نفسها ، لكى لا تكون المحركات فى مجرى التيار ، ويكون فى استقبالها جمهور متوسط من الرجال والنساء . ذلك أبى وأولئك اعمامى وأولاد أعمامى وقد ربطوا حميرهم فى شجر الجميز . لا يفصل ضباب بينى وبينهم هذه المرة ، فانا قادم من الخرطوم ، فقط ، بعد غيبة لم تدم أكثر من سبعة أشهر . اننى أراهم بعين واقعية . جلابيبهم نظيفة ولكنها غير مكوية ، وعمائمهم أكثر بياضا من جلابيبهم ، شواربهم تتفاوت طولا وقصرا ، سوادا وبياضا . بعضهم له لحى ، والذين ليست لهم لحى أهملوا حلاقتها . بين حميرهم حمارة سوداء لم ارها من قبل . ينظرون الى الباخرة دون اكتراث اذ تلقى مراسيها ويزدحم الناس عند مدخلها . انهم ينتظروننى

فى الخارج ، لا يهرولون لملاقاتي • ويصافحونني ويصافحون زوجتي على عجل ، ولكنهم يمطرون الطفلة قبلا ، يتناوبون حملها على ايديهم، ريثما تحملنا الحمير الى الحى • هذا حالى منـــــذ كنت تلميذا في المدرسة ، لم أنقطع الا في غيبتي الطويلة تلك التي سبق أن حدثتكم عنها . وفى الطريق الى الحى أسألهم عن الحمارة السوداء فيقول أبى : « اعرابى غش عمك واخذ منه حمارته البيضاء التى تعرفها وفوقها خمسة جنيهات ايضا » . ولا أدرى أى اعمامى غشه الاعرابى ، حتى اسمع صوت عمى عبد الكريم يقول : « على الطلاق هذه أجمل حمارة فى البلد كلها • هذه جواد وليست حمارة • اذا شئت وجدت من يعطينى فيها ثلاثين جنيها » . ويضحك عمى عبد الرحمن ويقول : « اذا كانت جوادا فهى جواد عاقر • لا خير فى حمـــــارة لا تلد » •

واسألهم عن محصول التمر هذا العام وانا اعلم اجابتهم سلفا : « لاخير فيه » . يقولون ذلك بصوت واحد ، وكل سنة الاجابة نفسها ، وانا ادرك أن الامر خلاف ما يزعمون . ونمر ببناء من الطوب الاحمر على ضفة النيل فى منتصف تمامه ، وأسألهم عنه ، فيقول عمى عبد المنان « شفخانة • لهم حول لا يستطيعون بناءها • حكومة كلام فارغ » •

واقول له اننى كنت هنا منذ سبعة اشهر فقط ، ولم يكونوا قد بدأوا بناءها بعد . لكن هذا لا يثنى عمى عبد المنان ، فيقول : « كل الذى يفلحون فيه يجيئون الينا مرة كل عامين أو ثلاثة بجماهيرهم ولواريهم ولافتاتهم .. يعيش فلان ويسقط علان . كنا مرتاحين ايام الانكليز من هذه الدوشة » • وبالفعل يمر بنا جمع من الناس فى لورى قديم وهم يهتفون : « عاش الحزب الوطنى الديمقراطى الاشتراكى » • هل هؤلاء الناس الذين يطلق عليهم « الفلاحون » فى الكتب؟ لو قلت لجدى أن الثورات تصنع باسمه، والحكومات تقوم وتقعد من اجله لضحك . الفكرة تبدو شاذة فعلا ، كما ان حياة مصطفى سعيد وموته فى مكان مثل هذا

يبدو شيئا صعبا تصديقه . مصطفى سعيد كان يحضر الصلوات فى المسجد بانتظام . لماذا كان يبالغ فى تمثيل ذلك الدور المضحك ؟ هل جاء الى هذه القرية النائية يطلب راحة البال ؟ لعل الاجابة في تلك الغرفة المستطيلة ذات النوافذ الخضراء · ماذا أتوقع ؟ هل أتوقع أن اجده جالسا على كرسى وحده فى الظلام ؟ ام اتوقع أن اجده معلقا من رقبته بحبل يتدلى من السقف ؟ والرسالة التى تركها فى ظرف مختوم بالشمع الاحمر ، متى كتبها ؟

« انني أترك زوجتي وولدي وكل مالي من متاع الدنيا فى ذمتك ، وأنا أعلم أنك ستكون أمينا على كل شيء · زوجتي تعلم بكل مالي ، وهي حرة التصرف . اني واثق بحكمتها . ولكنني أطلب منك أن تؤدي هذه الخدمة لرجل لم يسعد بالتعرف اليك كما ينبغي ـ أن تشمل أهل بيتي برعايتك وان تكون عونا ومشيرا ونصيحا لولدي ، وان تجنبهما ما استطعت مشقة السفر . جنبهما مشقة السفر . وساعدهما أن ينشآ نشأة عادية ويعملا عملا مفيدا . وانا أترك لك مفتاح غرفتي الخاصة ولعلك تجد فيها ما تبحث عنه . انا اعلم انك تعاني من رغبة استطلاع مفرطة بشأني ، الامر الذى لا أجد له مبررا . فحياتي مهما كان من امرها ليس فيها عظة أو عبرة لاحد . ولولا ادراكي ان معرفة أهل القرية بماضي كان سيعوقني عن مواصلة الحياة التى اخترتها لنفسي بينهم ، لما كان ثمة مبرر للكتمان . وانت فى حل من العهد الذى قطعته على نفسك تلك الليلة ، فتحدث ماشئت . واذا لم تستطع أن تقاوم رغبة الاستطلاع فى نفسك ، فستجد فى تلك الغرفة ، التى لم يدخلها أحد غيري من قبل ، قصاصات ورق وشذورا متفرقة ومحاولات لكتابة مذكرات وغير ذلك . ارجو على أى حال أن تساعدك على تزجية الساعات التى لا تجد وسيلة أفضل لقضائها . وانا اترك لك تقدير الوقت المناسب لتعطي ولدي مفتاح الغرفة

وتساعدهما على ادراك حقيقة أمرى . انه يهمنى ان يعلما أى نوع من الناس كان أبوهما ـ اذا كان ذلك ممكنا اصلا ـ وليس هدفى أن يحسنا بى الظن . حسن الظن هو آخر ما أرمى اليه ـ ولكن لعل ذلك يساعدهما على معرفة حقيقتهما ، ولكن فى وقت لا تكون المعرفة فيه خطرا . اذا نشآ مشبعين بهواء هذا البلد وروائحه والوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريات فيضاناته وحصاداته وزراعاته فان حياتى ستحتل مكانها الصحيح كشىء له معنى الى جانب ممان كثيرة أخرى اعمق مدلولا . لا ادرى كيف يفكران فى حينئذ . قد يحسان نحوى بالرثاء ، وقد يحولاننى بخيالهما الى بطل . هذا ليس مهما . المهم ان حياتى لن تجىء من وراء المجهول كروح شريرة تلحق بهما الضرر . وكم كنت اتمنى أن اظل معهما ، أراقبهما يكبران امام عينى ويكونان على الاقل مبررا لوجودى . اننى لا ادرى اى العملين أكثر أنانية ، بقائى أم ذهابى . ومهما يكن فانه لا حيلة لى ، ولعلك تدرك قصدى اذا عدت بذاكرتك الى ما قلته لك تلك الليلة . لا جدوى من خداع النفس . ذلك النداء البعيد لا يزال يتردد فى أذنى . وقد ظننت أن حياتى وزواجى هنا سيسكتانه . ولكن لعلى خلقت هكذا ، أو ان مصيرى هكذا ، مهما يكن معنى ذلك ، لا ادرى . اننى أعرف بعقلى ما يجب فعله ، الامر الذى جربته فى هذه القرية ، مع هؤلاء القوم السعداء . ولكن اشياء مبهمة فى روحى وفى دمى تدفعني الى مناطق بعيدة تتراءى لى ولا يمكن تجاهلها . واحسرتى اذا نشأ ولداى ، احدهما أو كلاهما ، وفيهما جرثومة هذه العدوى ، عدوى الرحيل . اننى أحملك الامانة لاننى لمحت فيك صورة عن جدك . لا أدرى متى اذهب يا صديقى ولكننى أحس أن ساعة الرحيل قد ازفت ، فوداعا »

اذا كان مصطفى سعيد قد اختار النهاية ، فانه يكون قد قام باعظم عمل ميلودرامى فى رواية حياته . واذا كان الاحتمال الاخر هو

الصحيح ، فان الطبيعة تكون قد منت عليه بالنهاية التى كان يريدها لنفسه . تصور . عز الصيف فى شهر يوليو العتيد . النهر اللامبالى فاض كما لم يفض منذ ثلاثين عاما . الظلام يصهر عناصر الطبيعة جميعا فى عنصر واحد محايد ، اقدم من النهر ذاته وأقل منه اكتراثا هكذا يجب أن تكون نهاية هذا البطل . انما هل هى فعلا النهاية التى كان يبحث عنها ؟ لعله كان يريدها فى الشمال ، الشمال الاقصى ، فى ليلة جليدية عاصفة ، تحت سماء لانجوم لها ، بين قوم لا يعنيهم امره . نهاية الغزاة الفاتحين . ولكنهم ، كما قالوا ، تآمروا ضده ، المحلفون والشهود والمحامون والقضاة ليحرموه منها . هكذا قال : « رأى المحلفون أمامهم رجلا لا يريد أن يدافع عن نفسه . رجلا فقد الرغبة في الحياة . اننى ترددت فى تلك الليلة ، حين شهقت جين فى أذنى . « تعال معى . تعال » . كانت حياتى قد اكتملت ليلتها ، ولم يكن ثمة مبرر للبقاء . ولكننى ترددت ، وخفت فى اللحظة الحاسمة . وكنت أرجو أن تمنحنى المحكمة ما عجزت انا عن تحقيقه . وكأنما أدركوا قصدى ، فصمموا الا يعطونى آخر أمنية لى عندهم . حتى الكولونيل همند الذى كنت أتوسم فيه الخير ، ذكر زيارتى لهم فى لفربول ، واننى تركت فى نفسه أثرا حسنا . قال انه يعتبر نفسه انسانا متحررا ليس عنده تحيز ضد أحد . ولكنه رجل واقعى ، وقد كان يرى ان زواجا مثل ذلك لن ينجح . وقال ايضا ان ابنته آن وقعت تحت تأثير الفلسفات الشرقية فى اكسفورد ، وكانت مترددة بين اعتناق البوذية أو الاسلام . وهو لا يستطيع أن يجزم اذا كان انتحارها بسبب أزمة روحية انتابتها ، أو لانها اكتشفت خداع مستر مصطفى سعيد لها . كانت آن ابنته الوحيدة ، وقد عرفتها وهى دون العشرين ، فخدعتها وغررت بها وقلت لها نتزوج زواجا يكون جسرا بين الشمال والجنوب ، وحولت جذوة التطلع فى عينيها الخضراوين

الى رماد . ومع ذلك يقف أبوها وسط المحكمة ويقول بصوت هادىء انه لا يستطيع أن يجزم . هذا هو العدل وأصول اللعب ، كقوانين الحرب والحياد فى الحرب . هذه هى القوة التى تلبس قناع الرحمة» المهم انهم حكموا عليه بالسجن ، سبع سنوات فقط ، ورفضوا ان يتخذوا القرار الذى كان عليه هو أن يتخذه بمحض ارادته . ويخرج من السجن ، ويتشرد في أصقاع الارض ، من باريس الى كوبنهاجن الى دلهى الى بانكوك ، وهو يحاول التسويف . وتكون النهاية بعد ذلك فى قرية مغمورة الذكر على النيل ، ولا يستطيع المرء ان يجزم هل كانت اعتباطا أو انه اسدل الستار بمحض ارادته . انما أنا لم أجىء الى هنا لافكر فى مصطفى سعيد ، فها هى ذى بيوت القرية المتلاصقة من الطين والطوب الاخضر تشرئب بأعناقها أمامنا ، وحميرنا تحث السير لانها شمت بخياشيمها رائحة البرسيم والعلف والماء . هذه البيوت على حافة الصحراء ، كأن قوما فى عهد قديم أرادوا أن يستقروا ثم نفضوا أيديهم ورحلوا على عجل . هنا تبدأ أشياء وتنتهى أشياء . ومنطقة صغيرة من هواء بارد رطب يأتى من ناحية النهر ، وسط هجير الصحراء ، كأنه نصف حقيقة وسط عالم ملىء بالاكاذيب . أصوات الناس والطيور والحيوانات تتناهى ضعيفة الى الاذن كأنها وساوس ، وطقطقة مكنة الماء المنتظم تقوى الاحساس بالمستحيل . والنهر ، النهر الذى لولاه لم تكن بداية ولا نهاية ، يجرى نحو الشمال ، لا يلوى على شىء ، قد يعترضه جبل فيتجه شرقا ، وقد تصادفه وهدة من الارض فيتجه غربا ، ولكنه ان عاجلا او آجلا يستقر فى مسيره الحتمى ناحية البحر فى الشمال .

(٥)

وقفت عند باب دار جدى فى الصباح ـ باب ضخم عتيق من خشب الحراز ، لاشك أنه استوعب حطب شجرة كاملة ، صنعه ود البصير : مهندس القرية الذى لم يتعلم النجارة فى مدرسة ، كما كان يصنع عجلات السواقى وحلقاتها ، وأيضا يجبر العظام ، ويكوى ويحجم : ويتخصص كذلك فى نقد الحمير ، قل ان يشترى أحد من أهل البلد حمارة دون مشورته • ود البصير لا يزال حيا الى يومنا هذا ، ولكنه لم يعد يصنع مثل باب بيت جدى ، بعد ان اكتشفت الاجيال اللاحقة من اهل البلد ابواب خشب الزان وأبواب الحديد ، يجلبونها من أم درمان . والسواقى أيضا . بار سوقها حين جاءت مكنات الماء . وسمعتهم يقهقهون ، فميزت ضحكة جدى النحيلة الخبيثة المنطلقة حين يكون على سجيته ، وضحكة ود الريس التى تخرج من كرش مملوء بالطعام دائما ، وضحكة بكرى التى تأخذ لونها وطعمها من المجلس الذى يكون موجودا فيه ، وضحكة بنت مجذوب القوية المسترجلة تخيلت جدى جالسا على فروة صلاته وفى يده مسبحته من خشب الصندل ، تدور فى حركة دائبة كقواديس الساقية . وبنت مجذوب وود الريس وبكرى ، اصدقاؤه القدامى ، يجلسون على تلك الاسرة الوطيئة ، التى لا تعلو ارجلها من الارض اكثر من شبرين . ارتفاع السرير عن الارض ، فى زعم جـــدى ، من الغـــرور ، وقصره من التواضـع .. بنت مجـذوب متكئة على كوعهـــا ، وفى اليد الاخرى ســــيجارة . ود الريس كأنه يخـــرج الحكايات

الخبيثة من أطراف شنـــاربية . وبكرى يجلس وحسب . هـــذه الدار الكبيرة ليست من الحجر ولا الطوب الاحمر ، ولكنها من الطين نفسه الذي يزرع فيه القمح ، قائمة على أطراف الحقل تماما ، تكون امتدادا له . وهذا واضح من شجيرات الطلح والسنط النامية فى فناء الدار والنباتات التى نمت فى الحيطان نفسها حيث تسرب اليها الماء من الارض المزروعة . وهى دار فوضى قائمة دون نظام ، اكتسبت هيئتها هذه على مدى أعوام طويلة : غرف كثيرة مختلفة الاحجام ، بنيت بعضها لصق بعض فى اوقات مختلفة ، اما حسب الحاجة اليها او لان جدى توفر له شىء من المال لم يجد وسيلة أخرى ينفقه فيها . غرف يؤدى بعضها الى بعض،بعضها لها ابواب وطيئة لابد ان تنحنى كى تدخلها ، وبعضها ليست لها أبواب اطلاقا ، بعضها لها نوافذ كثيرة ، وبعضها ليست لها نوافذ . حيطانها ملساء مطلية بمادة هى خليط من الرمل الخشن والطين الاسود وزبالة البهائم ، وكذلك السطوح ، والاسقف من جذوع النخل وخشب السنط وجريد النخيل . دار متاهة ، باردة فى الصيف ، دافئة فى الشتاء . اذا نظـرت إليهـا من الخارج ، دون عطف ، احسست بها كيانا هشا لن يقوى على البقاء ، ولكنها تغالب الزمن بشىء كالمعجزة .

ودخلت من باب الحوش ، ونظرت الى اليسار واليمين فى الفنــاء الواســع . هنالك تمر نشر على بروش ليجف . وهنـالك بصـل وشطة . وهنالك أكياس قمح وفول وبعضها خيطت افواهه وبعضها مفتوح . وفى ركن عنزتأكل شعيرا وترضعمولودا . هذه الدارمصيرها مرتبط بمصير الحقل ، اذا اخضر الحقل اخضرت ، وحين يجتـــاح القحط الحقول يجتاحها هى أيضا . واشم تلك الرائحة التى يمتـاز بها بيت جدى ، خليط من روائح متنافرة ، رائحة البصل والشطة والتمر والقمح والفول واللوبية والحلبة ، اضف اليها رائحة البخور

الذى يعبق دائما فى مجمر الفخار الكبير . رائحة تذكرنى بتقشف جدى فى العيش ، وترفه فى لوازم صلاته . الفروة التى يصلى عليها، وحين يشتد البرد يستعملها غطاء ، عبارة عن جلودثلاثة نمور مخيطة فى جلد واسع . وابريق الصلاة من النحاس عليه تصاوير ونقوش ، وله طشت من نحاس أيضا . وهو يفتخر خاصة بمسبحته لانهـا من خشب الصندل ، ويداعب حباتها ، ويمسح بها وجهه ويستنشق رائحتها . وكان اذا غضب من أحد احفاده ، ضربه بها على راسه ، يقول ان ذلك يطرد الشيطان . وهذه الاشياء جميعا ، مثل غرف داره ، والنخل فى حقله ، لها تاريخ قصه على جدى مرارا وتكرارا ، فى كل مرة يحذف شيئا ويضيف شيئا .

وتمهلت عند باب الغرفة وانا أستمرىء ذلك الاحساس العذب الذى يسبق لحظة لقائى مع جدى كلما عدت من السفر . احساس صاف بالعجب من ان ذلك الكيان العتيق ما يزال موجودا اصلا على ظاهر الارض . وحين اعانقه استنشق رائحته الفريدة التى هى خليط من رائحة الضريح الكبير فى المقبرة ورائحة الطفل الرضيع . وذلك الصوت النحيل المطمئن ، يقوم جسرا بينى وبين الساعة القلقة التى لم تتشكل بعد ، الساعات التى استوعبت احداثها ومضت ، واصبحت لبنات فى صرح له مدلولات وأبعاد . نحن بمقاييس العالم الصناعى الاوربى ، فلاحون فقراء ، ولكننى حين اعانق جدى احس بالغنى ، كأننى نغمة من دقات قلب الكون نفسه . انه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع فى ارض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب ، ولكنه كشجيرات السيال فى صحارى السودان ، سميكة اللحى حادة الاشواك ، تقهر الموت لانها لا تسرف فى الحياة . وهذا هو وجه العجب . انه عاش اصلا ـ رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد الحكام . وها هو ذا الآن يقترب من عامه المائة ، أسنانه جميعا فى فمه ، عيناه صغيرتان

باهتتان تحسب انهما لا تريان ولكنه ينظر بهما فى حلكة الليل ، جسمه الضئيل منكمش على ذاته ، عظام وعروق وجلد وعضلات ، وليست فيه قطعة واحدة من الشحم ، يقفز فوق الحمار نشيطا ؛ ويمشى فى غبش الفجر من بيته الى الجامع .

مسح جدى بطرف ثوبه الدمع الذى سال على وجهه من شدة الضحك ، وبعد أن أمهلونى ريثما استقر فى مجلسى معهم ، قال جدى : «والله حكايتك حكاية يا ود الريس » . وكان هذا ايذانا لود الريس بأن يستمر فى القصة التى قطعها دخولى عليهم . « وبعد ، يا حاج احمد ، اركبت البنت أمامى على الحمار وهى تفلفص وتتلوى وبالقوة جردتها من جميع ثيابها حتى أصبحت عارية كما ولدتها أمها ، كانت فرخة عديلة من جوارى بحرى بلغت توها ــ النهد يا حاج أحمد كأنه طبنجة والكفل اذا طوقته بذراعيك لاتصل حده . وكانت مدهنة ومدلكة جلدها يلمع فى ضوء القمر وعطرها يدوخ العقل . ونزلت بها الى منطقة رملية وسط الذرة . ولما قمت عليها سمعت حركة فى الذرة وصوتا يقول : من هناك ؟ يا حاج احمد ، جنون الشباب ليس مثله جنون . فكرت بسرعة . وعملت اننى عفريت . وأخذت أصرخ بأصوات شيطانية واثير الرمل وابرطع ، فذعر الرجل وهرب . انما النكتة أن عمى عيسى كان قد تقفى اثرى منذ خطفت الجارية من بيت العرس حتى وصلنا الى بقعة الرمل . ولما رأى أننى عملت عفريت وقف يتفرج . وثانى يوم فى الصباح الباكر ذهب الى والدى رحمة الله عليه وقص عليه القصة كلها ، وقال له : ابنك هذا شيطان رجيم ، واذا لم نجد له زوجة فى هذا النهار أفسد البلد وسبب لنا فضائح لا أول لها ولا آخر . وفعلا عقدوا لى فى نفس اليوم على بنت عمى رجب . الله يرحمها ، ماتت فى أول ولادة » . وقالت له بنت مجذوب وهى تضحك بصوتها الرجالى المبحوح من كثرة التدخين : « ومن يومها وانت تركب

وتنزل كأنك فحل الحمير » .

فقال لها ود الريس : « هل احد يعرف حلاوة هذا الشيء اكثر منك يابنت مجذوب ؟ انك دفنت ثمانية ازواج ، والآن وانت عجوز كركبة لو وجدته لما قلت لا » . وقال جدى : « سمعنا ان غنج بنت مجذوب شيء لا يتصوره العقل » .

واشعلت بنت مجذوب سيجارة وقالت : « على الطلاق يا حاج احمد ، كنت حين يرقد زوجي بين فخذى أصرخ صراخا تجفل منـــه البهائم المربوطة فى مراحها فى الساقية » . وكان بكرى قبل ذلك يضحك ولا يقول شيئا ، فقال : «حدثينا يا بنت مجذوب . اى ازواجك كان احسن ؟ » فقالت بنت مجذوب على الفور : « ود البشير » . فقال بكرى : « ود البشير الكحيان التعبان ؟ كانت العنز تأكل عشاءه » .

ونفضت بنت مجذوب رماد السيجارة على الارض بحركة مسرحيه باصابعها وقالت : « على الطلاق ، كان عنده شيء مثل الوتد حين يدخله فى احشائى لا اجد ارضا تسعني . كان يرفع رجلى بعد صلاة العشاء ، واظل مشبوحة حتى يؤذن اذان الفجر . وكان حين تأتيـــه الحالة يشخر كالثور حين يذبح . وكان دائما حين يقوم من فوقى يقول : هالله الله يا بنت مجذوب » . فقال لها جدى : « لا عجب انك قتلته فى عز الشباب » . فضحكت بنت مجذوب وقالت : « قتله اجله . هذا الشيء لا يقتل احدا »

كانت بنت مجذوب امرأة طويلة لونها فاحم مثل القطيفة السوداء ، ما يزال فيها الى الان وهى تقارب السبعين بقايا جمال . وقد كانت مشهورة فى البلد ، يتسابق الرجال والنساء على السواء لسماع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرج . وكانت تدخن السجاير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل . ويقال ان امها كانت ابنة احد سلاطين الفور . وقد تزوجت عددا من خيرة رجال البلد ، ماتوا كلهم عنهـا

وتركوا لها ثروة ليست قليلة . وقد انجبت ولدا واحدا وعددا لا يحصى من البنات اشتهرن بجمالهن وعدم تحرجهن فى الحديث ، مثل امهن . ويروى ان احدى بنات بنت مجذوب تزوجت رجلا لم تكن أمها راضية عنه . وحملها وسافر بها . ولما عاد بعد نحو من عام أراد ان يقيم وليمة يدعو اليها اقارب زوجته . فقالت له الزوجة : « ان امى لا تتحرج فى كلامها ومن الخير ان ندعوها وحدها » . وفعلا ذبحوا وأولموا لها . وبعد أن طعمت وشربت قالت لابنتها وزوجها يسمع : « يا آمنة . هذا الرجل لم يقصر فى حقك . فمسكنك حسن وملبسك حسن ، وقد ملأ يديك ورقبتك ذهبا . ولكن لا يبدو على وجهه انه يقدر على اشباعك فى الفراش . فاذا أردت الشبع الصحيح فانا أعرف لك زوجا اذا جاءك لا يتركك حتى تزهق روحك » . ولما سمع الزوج هذا الكلام غضب غضبا شديدا وطلق زوجته ثلاثا فى الحين .

وقالت بنت مجذوب لود الريس : « ما بالك ، لك عامان وانت مكتف بزوجة واحدة ؟ هل ضعفت همتك ؟ »

وتبادل ود الريس وجدى نظرات لم افهمها الا فيما بعد ، وقال : « الوجه وجه شيخ والقلب قلب شاب . هل تعرفين أرملة أو ثيبا تصلح لى ؟ »

وقال بكرى : « النصيحة لله ياود الريس . انت لم تعد رجل زواج . انك الآن شيخ فى السبعين واحفادك صار لهم أولاد . الا تستحى ، لك كل سنة عرس ؟ الآن يلزمك الوقار والاستعداد لملاقاة الله سبحانه وتعالى » .

ضحكت بنت مجذوب وضحك جدى لهذا القول ، وقال ود الريس فى غضب مصطنع : « ماذا يفهمك انت فى هذه الامور ؟ انت وحاج احمد كل واحد منكم اكتفى بامرأة واحدة . ولما ماتتا وتركتاكما لم تجدا الجرأة على الزواج . حاج احمد هذا طول اليوم فى صلاة وتسبيح كان

الجنة خلقت له وحده . وانت يا بكرى مشغول فى جمع المال الى أن يريحك منه الموت . الله سبحانه حلل الزواج وحلل الطلاق وقال ما معناه خذوهن بإحسان أو فارقوهن باحسان . وقال فى كتابه العزيز : النسوان والبنون زينة الحياة الدنيا » .

وقلت لود الريس ان القرآن لم يقل « النسوان والبنون » ولكنه قال « المال والبنون » . فقال : « مهما يكن ، لا توجد لذة اعظم من لذة النكاح » .

وملس ود الريس شاربيه المقوسين بعناية الى أعلى ، طرفاهما كحد الابرة ، ثم أخذ يمسح بيده اليسرى لحيته الغزيرة البيضاء التى تلبس وجهه من الصدغ الى الصدغ ، ويتنافر لونها الابيض الناصع من سمرة وجهه كلون الجلد المدبوغ ، فكأن اللحية شيء صناعى الصق بالوجه . ويختلط بياض اللحية دون مشقة ببياض العمة الكبيرة ، مقيما اطارا صارخا يبرز أهم معالم الوجه : العينين الجميلتين الذكيتين ، والانف المرهف الوسيم . وود الريس يستعمل الكحل متذرعا بأن الكحل سنة ، لكننى اظن انه يفعل ذلك زهوا . كان فى مجموعه وجها جميلا ، خاصة اذا قارنته بوجه جدى الذى ليس فيه شيء يميزه ، ووجه بكرى وهو كالبطيخة المكرمشة . وواضح ان ود الريس يدرك ذلك ، وقد سمعت انه كان فى شبابه آية فى الحسن ، وان قلوب الفتيات كانت تخفق بحبه قبلى وبحرى ، اعلى النهر وأسفله . كان كثير الزواج والطلاق ، لا يعنيه فى المراة انها امراة ، يأخذهن حيثما اتفق ، ويجيب اذا سئل : « الفحل غير عواف » . واذكر من زوجاته دنقلاوية من الخندق ، وهدندوية من الفضارف ، والنوبية وجدها تخدم عند ولده الاكبر فى الخرطوم ، وامراة من نيجيريا عاد بها فى حجته الرابعة . ولما سئل كيف تزوجها قال انه اجتمع بها وبزوجها فى السفينة بين بور سودان وجدة وتصادق معهما . ولكن الرجل توفى

فى مكة يوم الوقوف على عرفات . وقال له وهو يحتضر : « أوصيك بزوجتى خيرا » . ولم يجد خيرا من زواجها . عاشت معه ثلاثة أعوام ، وهو وقت طويل بحساب ود الريس . وكان فرحا بها ، وأعظم سروره انها كانت عاقرا . وكان يحكي للناس خصائص أفعاله معها ، ويقول : « من لم يتزوج فلاتية لم يعرف الزواج » . وأثناء حياته معها تزوج بامرأة من الكبابيش ، عاد بها فى زيارة له الى حمرة الشيخ . لكن المرأتين لم تطيقا الحياة معا ، فطلق الفلاتية ارضاء للكباشية ، ولكن الكباشية ، بعد ذلك بقليل ، هجرته وهربت الى أهلها فى حمرة الشيخ

وضربني ود الريس بكوعه فى جنبى وقال : « قالوا نسوان النصارى شيء فوق التصور » . فقلت له : « لا أدرى » .

فقال : « أى كلام هذا ؟ شاب مثلك فى عز الشباب يعيش سبع سنين فى بلاد الهنك والرنك وتقول لا أدرى »

سكت ، فقال ود الريس : « قبيلتكم هذه لا خير فيها . انتم رجال المرأة الواحدة — ليس فيكم غير عمك عبد الكريم . ذلك هو الرجل »

كنا بالفعل معروفين فى البلد باننا لا نطلق زوجاتنا ولا نتزوج عليهن ، وكان أهل البلد يتندرون علينا ويقولون اننا نخاف من زوجاتنا . الا عمي عبد الكريم — كان مطلاقا مزواجا ، وزانيا أيضا

وقالت بنت مجذوب : « حريم النصارى لا يعرفن لهذا الشيء كما تعرف له بنات البلد . نساء غلف ، الحكاية عندهن كشرب الماء . بنت البلد تعمل الدلكة والدخان والريحة وتلبس الفركة القرمصيص . وحين ترقد على البرش الأحمر بعد صلاة العشاء وتفتح فخذيها ، يشعر الرجل كأنه ابو زيد الهلالى . الرجل الماعنده همة يصبح له همة » .

وضحك جدى وضحك بكرى وقال ود الريس : « دعك من بنات البلد يا بنت مجذوب . النسوان البرانيات ، هؤلاء هن النساء »

وقالت بنت مجذوب : « عقلك هو البراني » . وقال جدي : « ود الريس يحب النسوان الغير مطهرات »

وقال ود الريس : « على اليمين يا حاج أحمد ، لو ذقت نساء الحبش والفلاتة كنت رميت مسبحتك وتركت صلاتك . ما بين فخاذهن كأنه الصحن المكفي ، صاغ سليم ، بكامل خيره وشره . عندنا هنا يقطعونه ويتركونه مثل الارض الخلاء »

وقال بكري : « الختانة من شروط الاسلام » . فقال ود الريس : « اى اسلام هذا ؟ اسلامك انت واسلام حاج احمد ، لانكم لا تعرفون الذي يصلحكم من الذي يضركم . الفلاتة والمصريون وعرب الشام ، اليسوا مسلمين مثلنا ؟ لكنهم ناس يعرفون الاصول . يتركون نساءهم كما خلقهن الله . اما نحن فنجزهن كما تجز البهيمة » .

وضحك جدي حتى أسقط ثلاث حبات من مسبحته مرة واحدة دون وعي ، وقال : « المصريات ، مثلك لا يقدر عليهن » . فقال له ود الريس : « وما أدراك انت بالمصريات ؟ » فقال بكري بالنيابة عن جدي : « هل نسيت ان حاج احمد سافر الى مصر سنة ستة واقام فيها تسعة أشهر ؟ »

وقال جدي : « مشيت على قدمي ، ليس معي غير المسبحة والابريق » .

فقال ود الريس : « وماذا فعلت ؟ عدت كما ذهبت بالمسبحة والابريق . على اليمين ، لو كنت محلك لما عدت فارغ اليدين » .

فقال جدي : «اظنك كنت رجعت ومعك امرأة . هذا هو كل همك . أنا رجعت ومعي المال فاشتريت الارض وعمرت الساقية وطهرت اولادي » .

وقال ود الريس : « بالله يا حاج احمد ، هل ذقت الشيء المصري ؟ » .

كانت حبات المسبحة طول الوقت تتفلت بين اصابع جدى ، طالعة نازلة كأنها دولاب الساقية . لكن الحركة توقفت فجأة ، ورفع جدى وجهه الى السقف وفتح فمه . ولكن بكرى كان أسبق منه فقال : « انت يا ود الريس مجنون . رجل كبير لكن ما عندك فهم . النسوان نسوان في مصر أو السودان أو العراق أو واق ، الواق . السوداء والبيضاء والحمراء كلهن سواسية » .

ولم يستطع ود الريس من شدة دهشته أن يقول شيئا . ونظر الى بنت مجذوب كأنه يستنجد بها . وقال جدى : « الحق لله انني كنت اتزوج فى مصر . المصريون ناس طيبون ويحفظون العشرة . والمرأة المصرية تعرف قيمة الرجل . تعرفت برجل تقى فى بولاق كنا نلتقى دائما فى صلاة الفجر فى مسجد ابو العلاء . دخلت بيته وتعرفت على اهله . كان ابو بنات عنده ستبنات كل واحدة تقول للقمر قوم وأنا اقعد محلك . بعد مدة قال لي : ياسوداني انت رجل متدين وتحفظ العشرة . خليني أزوجك بنتا من بناتي . الحق لله يا ود الريس نفسى مالت الى البنت الكبيرة . لكن بعدها بقليل جاني تلغراف بوفاة المرحومة امى فسافرت فى الساعة والحين » . وقال بكرى : « رحمة الله عليها . كانت امرأة فاضلة » . وتنهد ود الريس وقال: « يا خسارة . الدنيا هكذا . تعطى اللى لا يريد ان يأخذ . على اليمين لو كنت فى محلك كنت عملت عمايل . كنت تزوجت وقعدت هناك وذقت حلاوة الحياة مع بنات الريف . ماذا أرجعك لهذا البلد الخلاء المقطوع ؟ »

وقال بكرى : « الغزال قالت بلدى شام » .

وكانت بنت مجذوب قد أوقدت سيجارة أخرى جذبت منها الدخان بسخاء وعكرت به سماء الغرفة ، فقالت لود الريس : « انت لم تعدم حلاوة الحياة حتى فى هذا البلد الخلاء المقطوع . ها انت

سمين بدين لا لعجز ولا تكبر مع انك زدت على السبعين » .

فقال ود الريس : « على اليمين ، سبعين سنة فقط لا تزيد يوما واحدا . انما انت شرط اكبر من حاج احمد » .

فقال له جدى : « خاف الله يا ود الريس . بنت مجذوب لم تكن ولدت حين تزوجت انا . وهى اصغر منك بسنتين او ثلاث » .

فقال ود الريس : « على أى حال ، انا فى يومنا هذا أنشط واحد فيكم . وعلى اليمين ، بين فخذى المرأة انا انشط من حفيدك هذا » .

فقالت بنت مجذوب : « انت تفلح فى الكلام . ولابد انك تجرى وراء النساء لان بضاعتك مثل عقلة الاصبع » . فقال ود الريس : « لو كنت تزوجتنى يا بنت مجذوب لوجدت شيئا مثل مـــدافع الانكليز » .

فقالت بنت مجذوب : « المدافع سكتت وقت مات ود البشير . انت يا ود الريس رجل مخرف ، عقلك كله فى راس ذكرك ، وراس ذكرك صغير مثل عقلك » .

وارتفع ضحكهم جميعا ، حتى بكرى الذى كان من قبل يضحك بهدوء . وتوقف جدى عن الطقطقة بمسبحته تماما ،وضحك ضحكته النحيلة الخبيثة المنطلقة . وضحكت بنت مجذوب بصوتها الرجالى المبحوح . وضحك ود الريس ضحكا اقرب الى الشـــخير منه الى الضحك . ومسحوا الدموع من أعينهم ، ـ وقال جدى : « أســـتغفر الله العظيم وأتوب اليه » . وقالت بنت مجذوب : « استغفر الله . والله ضحكتونا يا جماعة . اللهم اجمعنا ثانية فى ساعة خير » .

وقال بكرى : « استغفر الله . اللهم اغفر لنا وارزقنـــا حسن الختام » .

وقال ود الريس : « أستغفر الله العظيم . أيام نقضيها على وجه الارض وبعدها ربنا يفعل فينا ما يشاء » .

وهبت بنت مجذوب واقفة دفعة واحدة ، كما يهب رجـــل فى

الثلاثين ، وانتصبت بطولها ، معتدلة القامة ، لا انحناء في الظهر ولا تقوس في الكتفين . وقام بكرى متحاملا على نفسه . وقام ود الريس يتكيء قليلا على عصاه . وقام جدى من على فروة الصلاة وجلس على سريره ذى الارجل القصيرة . ونظرت اليهم ، ثلاثة شيوخ وامراة شيخة ، ضحكوا برهة على حافة القبر . وفي غد يرحلون . غدا يصير الحفيد أبا والاب جد ، وتستمر القافلة .

ثم خرجوا . وقال لى ود الريس وهو يذهب : « باكر يا أفندى تتغدى معنا » .

وتمدد جدى على سريره ، ثم ضحك ، وحده هذه المرة ، كأنما يؤكد احساسه بالعزلة ، بعد ان ذهب الناس الذين يضحكونه ويضحكهم . وبعد فترة قال : « هل تدرى لماذا دعاك ود الريس للغداء ؟ » فقلت له اننا أصدقاء وقد دعانى من قبل . فقال جدى : « انه يريد منك خدمة » .

فقلت : « ماذا يبغى ؟ »

قال : « يبغى الزواج » .

فتضاحكت وقلت لجدى : « ما شأنى بزواج ود الريس ؟ » فقال جدى : « انت وكيل العروس » .

لذت بالصمت . فقال جدى وهو يظن اننى لم افهم : « ود الريس يريد ان يتزوج ارملة مصطفى سعيد » .

مرة أخرى لذت بالصمت ، فقال جدى : « ود الريس لا يزال شابا ، وهو صاحب مال . وعلى أى حال المرأة يلزم لها الستر . ثلاثة أعوام مرت على وفاة زوجها . الا تريد الزواج أبدا ؟ »

قلت له اننى لست مسئولا عنها . أبوها موجود واخوتها ، فلماذا لا يطلبها ود الريس منهم ؟ فقال جدى : « البلد كلها تعرف أن مصطفى سعيد جعلك وصيا على زوجته وولديه » .

قلت له انني وصي على الولدين ولكن المرأة حرة التصرف • واولياؤهم موجودون • فقـــال جدي : « انها تثق بكلامك • لو حدثتها فقـد ترضى » .

احسست بغيظ حقيقي ادهشني ، اذ ان هذه الاشياء مألوفة في البلد . وقلت لجدي : « انها رفضت رجالا اصغر منه سـنا ، انه يكبرها باربعين عاما » . ولكن جدي اصر على ان ود الريس شاب وانه ميسور الحال وانه متأكد ان اباها لن يمانع ولكن المرأة نفسها قـد ترفض ولذلك ارادوا ان يجعلونني واسطة خير .

حبس الغضب لساني فلذت بالصمت . وقفزت الى ذهني صورتان فاضحتان في آن واحد . ولشدة عجبي ، اتحدت الصورتان في ذهني، وتخيلت حسنة بنت محمود ، ارملة مصطفى سـعيد ، هي المرأة نفسها في الحالتين ـ فخذان بيضاوان مفتوحتان في لندن ، وامرأة تئن تحت ود الريس الكهل ، قبيـل طلوع الفجر في قرية مغمورة الذكر عند منحنى النيل . ان كان ذلك شرا فهذا ايضا شر ، وان كان هذا ، مثل الموت والولادة وفيضان النيل • وحصاد القمح ، جزءا من نظام الكون ، فقد كان ذلك ايضا كذلك . والتصـور حسنة بنت محمود ، ارملة مصطفى سعيد ، في الثلاثين من العمر ، تبكي تحت ود الريس الذي بلغ السبعين ، ويتحول بكاؤها الى قصص من قصص ود الريس المشهورة عن نسائه الكثيرات ، يتندر بها رجال البـلد ، فيزداد الغيظ في صدري ضراوة • ولم أسـتطع البقـاء فخرجت ، وسمعت جدي ينادي ورائي فلم التفت • وفي بيتنا سـألني أبي عن سبب غضبي فحكيت له القصة . ضحك وقال : « هل هذا شيء يثير الغضب ؟ »

(٦)

قريبا من الساعة الرابعة بعد الظهر ذهبت الى بيت مصطفى سعيد ، ودخلت من باب الحوش الكبير ، ونظرت برهة الى اليسار الى الغرفة المستطيلة من الطوب الاحمر . ساكنة ، لا كالمقبرة ، ولكن كسفينة القت مراسيها في عرض البحر . انما الوقت لم يحن بعد . وأجلستني على كرسي في المصطبة أمام الديوان ، المكان عينه ، وجاءت لي بكوب من عصير الليمون . وجاء الولدان وسلما علي ، الاكبر محمود اسم أبيها ، والاصغر سعيد اسم ابيه . طفلان عاديان ، أحدهما في الثامنة وثانيهما في السابعة ، يرتدفان حمارا كل صباح الى المدرسة على بعد ستة أميال . انهما أمانة في عنقي ، ومن الاسباب التي تحضرني هنا كل عام أن أتفقد أحوالهما . سنختنهما هذه المرة ، وسنحضر المغنين والمداحين ونقيم احتفالا يكون ذكرى مضيئة من ذكريات طفولتهما . قال : « جنبهما مشقة السفر » . انني لن افعل شيئا من هذا القبيل ، اذا أرادا ، حين يكبران ، أن يسافرا فليسافرا . كل أحد يبدأ من أول الطريق ، والعالم في طفولة لا تنتهي

انصرف الولدان وظلت هي واقفة أمامي . قامة ممشوقة تقرب من الطول ، ليست بدينة ولكنها ريانة ممتلئة كعود قصب السكر ، لا تضع حناء في قدميها ولا في يديها ، ولكن عطرا خفيفا يفوح منها . شفتاها لعساوان طبيعة وأسنانها قوية بيضاء منتظمة . وجهها وسيم ، والعينان السوداوان الواسعتان يختلط فيهما الحزن

والحياء . حين سلمت عليها احسست بيدها ناعمة دافئة فى يدى .
امراة نبيلة الوقفة ، اجنبية الحسن ، ام اننى اتخيل شيئا ليس موجودا حقيقة ؟ امراة احس حين القاها بالحرج والخطر ، فاهرب منها اسرع ما استطيع . هذا هو القربان الذى يريد ود الريس ان يذبحه على حافة القبر ، ويرشى به الموت فيهمله عاما او عامين

وظلت واقفة رغم الحاحى ، ولم تجلس الا حين قلت لها : « اذا لم تجلسى فساذهب » . بدات الحديث بطيئا متعسرا ، ومضى كذلك والشمس تنحدر نحو المغيب ، والهواء يبرد قليلا قليلا ، وقليلا قليلا ايضا اخذت عقدة لسانى تنحل وعقدة لسانها . وقلت لها شيئا اضحكها وارتجف قلبى من عذوبة ضحكها . وانتشر دم المغيب فجاة فى الافق الغربى كدماء قوم ملايين ماتوا فى حرب عارمة نشبت بين الارض والسماء . وانتهت الحرب فجاة بالهزيمة ، ونزل ظلام كامل مستتب احتل الكون باقطابه الاربعة ، واضاع منى الحزن والحياء الذى فى عينيها . لم يبق الا الصوت الذى دفاته الالفة والعطر الخفيف كينبوع قد يجف فى اى لحظة . وفجاة قلت لها
« هل احببت مصطفى سعيد ؟ » .

لم تجب . وظللت برهة انتظر ولكنها لم تجب . ثم ادركت ان الظلام والعطر كادا يخرجاننى عن طورى وان ذلك سؤال لا يسأل فى ذلك الزمان وذلك المكان . ولكن الظلام ما لبث أن ثغر ثغرة نفذ منها صوتها الى اذنى :

« كان ابا لاولادى »

اذا صدق ظنى ، فان الصوت لم يكن حزينا ، بل كانت فيه مناغاة . وتركت الصمت يوسوس لها فلعلها تقول شيئا . نعم ، ذلك هو :

« كان زوجا كريما وابا كريما . طول حياته لم يقصر معنا »

فقالت : « لا أدرى . مثل الكلام الافرنجى »

وظللت مائلا وجهتها فى الظلام ، مترقبا ، منتظرا

« كان يردد فى نومه كلمات .. مثل جينا ، جينى .. لا أدرى »

فى هذا المكان نفسه ، فى وقت مثل هذا ، فى ظلام مثل هذا ، كان صوته يطفو كأحوات ميتة طافية على سطح البحر . « ظللت اطاردها ثلاثة أعوام . كان يوم يشتد توتر وتر القوس . قوافلى ظمأى والسراب يتوهج قدامى فى صحراء الشوق : فى تلك الليلة حين همست جين فى أذنى : « تعال معى . تعال معى » ، كانت حياتى قد اكتملت ولم يكن يوجد سبب للبقاء .. » وتناهت الى اذنى صرخة طفل من مكان ما فى الحى ، وقالت حسنه : « كأنه كان يحس بدنو أجله . قبل اليوم ، يوم .. قبل موته بأسبوع رتب كل شئونه . كانت له أطراف جمعها ، وديون دفعها . قبل موته بيوم دعانى وحدثنى بما عنده . أوصانى كثيرا على الولدين . اعطانى الرسالة المختومة بالشمع . قال لى . اعطها له اذا حدث شيء . قال لى اذا حدث شيء فأنت تكون وصيا على الاولاد . قال لى : ستشيريه فى كل ما تفعلين . بكيت وقلت له : ان شاء الله ما فى وج . فقال : فقط من باب الاحتياط والدنيا غير معروفة . فى ذلك ليوم توسلت اليه الا ينزل الى الحقل والدنيا فيضان وغرق . كنت خائفة . لكنه قال لا داعى للخوف وانه يجيد السباحة . كنت متوجسة طول اليوم وزاد خوفى حين تأخر عن ميعاده . وانتظرنا ، ثم كان ما كان »

واحسست بها تبكى فى صمت ، ثم ارتفع بكاؤها ، وتحول الى شهيق حاد ، ارتعش له الظلام القائم بينى وبينها . ضاع العطر والصمت ، ولم يعد فى الكون الا نحيب امراة ثكلت زوجا لا تعرفه ، رجلا افرد أشرعته وضرب فى عرض البحر وراء سراب أجنبى .

فقلت لها وانا أميل فى الظلام تجاهها : « هل كنت تعرفين من اين هو ؟ »

قالت : « من الخرطوم »

قلت : « وماذا يعمل فى الخرطوم ؟ »

قالت : « فى التجارة »

قلت : « ولماذا جاء الى هنا ؟ »

قالت : « الله أعلم »

وكدت أيأس . ثم هبت نسمة نشطة فى اتجاهى حاملة شحنة من العطر ، فوق ما كنت أطمع فيه . واستنشقت العطر واحسست بيأسى يزداد حدة . وفجاة حدثت فجوة كبيرة فى الظلام ، نفذ منها صوت حزين هذه المرة ، حزنا أعمق من غور النهر . قالت : « اظنه كان يخفى شيئا »

لاحقتها بالسؤال : « لماذا ؟ »

قالت : « كان يقضى وقتا طويلا بالليل فى تلك الغرفة »

وازددت ملاحقة : « ماذا فى تلك الغرفة ؟ »

قالت : « لا أدرى . انى لم أدخلها قط . المفتاح عندك . لماذا لا تتحقق بنفسك ؟ »

نعم ، هبنا قمنا انا وهى الآن ، فى هذه اللحظة ، واوقدنا المصباح ، ودخلنا ، هل نجده معلقا من رقبته فى السقف ، أم نجده جالسا القرفصاء على الارض ؟

سألتها مرة اخرى : « لماذا تظنين انه كان يخفى شيئا ؟ »

صوتها الآن ليس حزينا وليست فيه مناغاة ، ولكنه مشرشر الأطراف كورقة الذرة :

« أحيانا بالليل فى النوم ، كان يقول كلاما .. بالرطانة »

ولاحقتها بالسؤال : « أى رطانة ؟ »

وود الريس الشيخ في داره يحـــلم بليـــالي الغنج تحت فركة القرمصيص • وأنا ماذا أفعل الآن وسط هذه الفوضى ؟ هل أقـــوم اليها واضمها الى صدرى واجفف دموعها بمنديلي وأعيد الطمأنينة الى قلبها بكلماتي ؟ وقمت نصف قومة مستندا الى ذراعى ، ولكننى أحسست بالخطر ، وتذكرت شيئا ، فلبثت واقفا هكذا زمنا فى حالة بين الاقدام والاحجام . وبغتة هبط على عناء ثقيل تهالكت تحت وطأته على المقعد . الظلام كثيف وعميق واساسى وليست حالة ينعدم فيها الضوء ـ الظلام الان ثابت كأن الضوء لم يوجد اصلا ، ونجوم السماء مجرد فتوق فى ثوب قديم مهلهل . العطر اضغاث احلام ، صوت لا يسمع مثل أصوات ارجل النمل فى تل الرمل . ونبع من جوف الظلام صوت لم يكن صوتها ، صوت ليس غاضبا ولا حزينا ولا خائفا ، صوت مجرد ، يقول : « كان المحامون يتصارعون على جثتى • لم أكن أنا المهم بل كانت القضية هى المهمة » بروفسور ماكسول فستركين من المؤسسين لحركة التسلح الخلقى فى اكسفورد ، وماسونى ، وعضو فى اللجنة العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البروتستنتية فى افريقيا . لم يكن يخفى كراهيته لى . ايام تتلمذى عليه فى اكسفورد كان يقول لى فى تبرم واضح : « انت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية فى افريقيا عديمة الجدوى ، فأنت بعد كل المجهودات التى بذلناها فى تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لاول مرة » . ومع ذلك فها هو ذا يستعمل كل مهارته ليخلصنى من حبل المشنقة . وسير آرثر هغنز ، تزوج وطلق مرتين ، مغامراته الغرامية معروفة ، مشهور بصلاته مع اليســار والاوساط البوهيمية . قضيت عيد الميلاد سنة ١٩٢٥ فى بيته فى سافرون ولدن . كان يقول لى : « انت وغد ولكننى لا اكره الاوغاد ، فأنا أيضا وغد » . لكنه فى هذه المحكمة سيستعمل كل مهارته ليضع

حبل المشنقة حول عنقى . والمحلفون ايضا ، اشتات من الناس ، منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم والتاجر والحانوتى ، لا تجمع صلة بينى وبينهم ، لو اننى طلبت استئجار غرفة فى بيت احدهم فاغلب الظن أنه سيرفض ، واذا جاءت ابنة أحدهم تقـــول له اننى سأتزوج هذا الرجل الافريقى ، فيحس حتما بأن العالم ينهـار تحت رجليه . ولكن كل واحد منهم فى هذه المحكمة سيسمو على نفسه لاول مرة فى حياته . وانا احس تجاههم بنوع من التفوق ، فالاحتفال مقام اصلا بسببى ، وانا فوق كل شىء مستعمر ، اننى الدخيـل الذى يجب أن يبت فى أمره ، حين جىء لكتشنر بمحمود ود أحمد وهو يرسف فى الاغلال بعد أن هزمه فى موقعة اتبرا ، قال له : « لماذا جئت بلدى تخرب وتنهب ؟ » الدخيل هو الذى قال ذلك لصاحب الارض ، وصاحب الارض طاطأ رأسه ولم يقل شيئـا . فليكن ايضا ذلك شأنى معهم . اننى اسمع فى هذه المحكمة صليل سيوف الرومان فى قرطاجة ، وقعقعة سنابك خيل اللنبى وهى تطأ ارض القدس . البواخر مخرت عرض النيل اول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد انشئت أصلا لنقل الجنود . وقد انشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول « نعم » بلغتهم . انهم جلبوا الينا جرثومة العنف الاوربى الاكبر الذى لم يشهد العالم مثيله من قبل فى السوم وفى فردان ، جرثومة مرض فتاك اصابهم منذ اكثر من الف عام . نعم ياسادتى ، اننى جئتكم غازيا فى عقر داركم . قطرة من السم الذى حقنتم به شرايين التاريخ . انا لست عطيلا . عطيل كان اكذوبة »

بينما كنت افكر فى قول مصطفى سعيد وهو يجلس فى هذا المكان عينه ، فى ليلة مثل هذه ، كنت أسمع نشيجها بالبكاء كأنه يصلنى من بعد ، يختلط فى خيالى بأصوات مبعثرة لا بد اننى سمعتها فى

أوقات متباعدة ، ولكنها تداخلت فى ذهنى كأجراس كنيسة ـ صراخ طفل فى مكان ما فى الحى ، وصياح ديك ، ونهيق حمار ، واصوات عرس تاتى من الضفة الاخرى للنهر • لكننى الآن أسمع صوتا واحدا فقط ، صوت بكائها الممض . ولم افعل شيئا . جلست حيث انا بلا حراك وتركتها تبكى وحدها لليل حتى سكتت . وكان لا بد أن اقول شيئا ، فقلت : « التعلق بالماضى لا ينفع احدا . عندك الولدان، وانت ما زلت شابة فى مقتبل العمر . فكرى فى المستقبل . ومن يدرى ، لعلك تقبلين واحدا من الخطاب العديدين الذين يطلبونك »

اجابت فورا ، بحزم ، الامر الذى ادهشنى : « بعد مصطفى سعيد لا ادخل على رجل »

ولم اكن انوى ان اقول لها ذلك ، ولكننى قلت : « ود الريس يريد زواجك ، وابوك واهلك لا يمانعون . كلفنى أن اتوسط له عندك »

وصمتت فترة طويلة حتى ظننت انها لن تقول شيئا ، وفكرت أن اقوم واذهب . واخيرا احسست بصوتها فى الظلام كأنه نصل : « اذا أجبرونى على الزواج ، فاننى سأقتله واقتل نفسى »

وفكرت فى عدة أشياء اقولها ، ولكننى ما لبثت ان سمعت المؤذن ينادى : « الله أكبر . الله أكبر » لصلاة العشاء ، فوقفت ، ووقفت هى أيضا ، وخرجت دون أن اقول شيئا

وانا اشرب قهوة الصباح جاءنى ود الريس . كنت انوى الذهاب الى داره ولكنه لم يمهلنى . قال انه جاء ليذكرنى بدعوة البارحة ، ولكننى كنت أعلم انه لم يستطع الصبر فجاء ليعرف منى نتيجة وساطتى . قلت له حالما جلس : « لا فائدة . انها لا تريد الزواج اطلاقا . لو كنت منك لتركت هذا الموضوع البتة »

لم اكن احسب ان الخبر سيقع عليه كما وقع فعلا . لكن ود

الريس الذى يبدل النساء كما يبــدل الحمير ، يجلس أمامى الآن : وجهه مريد وجفناه يرتعشان ، وقد عض شفته السفلى حتى كاد يقطعها . اخذ يتململ فى مقعده وينقر الارض فى عصبية بالفــة بعصاه . خلع حذاءه من رجله اليمنى ولبسه عدة مرات ، وكان يتأهب للقيام ثم يجلس ، ويفتح فمه كأنه يريد أن يتكلم ثم يسكت . يا للعجب . هل معقول ان ود الريس عاشق ؟ وقلت له : « لن تعدم امراة غيرها تتزوجها » .

قال وعيناه الذكيتان لم تعودا ذكيتين ، اصبحتا كرتين من الزجاج قد استقرتا على حالة واحدة جامدة : « لن أتزوج غيرها . ستقبلنى وانفها صاغر . هل تظن انها ملكة أو اميرة ؟ الارامل فى هذا البلد اكثر من جوع البطن . تحمد الله انها وجدت زوجا مثلى » .

قلت له : « اذا كانت امراة كسائر النساء فلماذا الاصرار ؟ انت تعلم انها رفضت رجالا غيرك ، بعضهم أصغر منك سنا . اذا أرادت ان تتفرغ لتربية ولديها فلماذا لا تتركونها وشأنها ؟ »

بغتة تدفق من ود الريس غضب جنونى لم اكن اظن انه من طبيعته . ثار ثورة عارمة ، وقال شيئا ادهشنى حقيقة : « اسأل نفسك لماذا ترفض بنت محمود الزواج . انت السبب . لا شك ان بينك وبينها شيئا . ما دخلك انت ؟ انت لست اباها ولا اخاها ولا ولى امرها . انها ستتزوجنى رغم انفك وانفها . ابوها قبل واخوانها قبلوا . الكلام الفارغ الذى تتعلمونه فى المدارس لا يسير عندنا . هذا البلد فيه الرجال قوامون على النساء »

ولا أعلم ماذا كان يحدث لولا ان ابى دخل فى تلك اللحظة ، وقمت فورا وخرجت

ورحت الى محجوب فى حقله . كان محجوب فى مثل سنى ، قضينا طفولتنا معا ، وكنا نجلس على درجين متلاصقين فى المدرسة

الاولية . وكان اذكى منى . ولما انتهينا من مرحلة التعليم الاولى قال محجوب : « هذا القدر من التعليم يكفى ، القراءة والكتابة والحساب . نحن ناس مزارعون مثل آبائنا واجدادنا . كل ما يلزم المزارع من التعليم ، ما يمكنه من كتابة الخطابات وقراءة الجرائد ومعرفة فروض الصلاة . واذا كانت لنا مشكلة نعرف نتفاهم مع الحكام » . مضيت انا فى ذلك السبيل ، وتحول محجوب الى طاقة فعالة فى البلد ، فهو اليوم رئيس للجنة المشروع الزراعى ، والجمعية التعاونية ، وهو عضو فى لجنة الشفخانة التى كادت تتم ، وهو على راس كل وفد يقوم الى مركز المديرية لرفع الظلامات . وحين جاء الاستقلال أصبح محجوب من زعماء الحزب الوطنى الاشتراكى الديمقراطى فى البلد . كنا احيانا نتذاكر أيام طفولتنا فى القرية فيقول لى : « لكن انظر أين انت الآن وأين أنا . انت صرت موظفا كبيرا فى الحكومة وأنا مزارع فى هذه البلد المقطوعة » . وأقول له باعجاب حقيقى : « انت الذى نجحت لا أنا ، لانك تؤثر على الحياة الحقيقية فى القطر . أما نحن فموظفون لا نقدم ولا نؤخر . الناس امثالك هم الورثاء الشرعيون للسلطة . أنتم عصب الحياة . انتم ملح الارض » . ويضحك محجوب ويقول : « اذا كنا نحن ملح الارض فهى أرض ماسخة »

ضحك ايضا بعد أن سمع قصتى مع ود الريس وقال : « ود الريس رجل مخرف لا يعنى ما يقول »

قلت له : « انت تعلم ان علاقتى بها علاقة يمليها الواجب لا أكثر ولا اقل ؟ »

فقال محجوب : « لا تلتفت لتخريف ود الريس . سمعتك فى البلد لا تشوبها شائبة . أهل البلد كلهم يلهجون بحمدك لانك تقوم بالواجب نحو أولاد مصطفى سعيد ، رحمه الله ، خير قيام . لقد

كان على أي حال رجلا غريبا لا تربطك به رابطة » . وسكت قليلا ثم قال : « انما اذا كان أبو المرأة واخوانها راضين فلا حيلة لاحد »

قلت له : « ولكن اذا كانت لا تريد الزواج . . » وقاطعني قائلا : « انت تعرف نظام الحياة هنا . المرأة للرجل ، والرجل رجل حتى لو بلغ أرذل العمر »

قلت له : « ولكن اذا كانت لا تريد الزواج . . » وقاطعني قائلا : في هذا العصر »

وقال محجوب : « الدنيا لم تتغير بالقدر الذى تظنه . تغيرت أشياء . طلمبات الماء بدل السواقى ، محاريث من حديد بدل محاريث الخشب . أصبحنا نرسل بناتنا للمدارس . راديوهات . أوتومبيلات . تعلمنا شرب الوسكى والبيرة بدل العرقى والمريسة . لكن كل شيء كما كان » . وضحك محجوب وهو يقول : « الدنيا تتغير حقيقة حين يصير أمثالى وزراء فى الحكومة » . وأضاف وهو ما يزال يضحك : « وهذا طبعا من رابع المستحيلات »

قلت لمحجوب ، وقد سرى عنى : « هل تظـن أن ود الريس وقع فى غرام حسنه بنت محمود ؟ »

قال محجوب : « لا يستبعد . ود الريس رجل صبابة . وهو منذ سنتين يلهج بذكرها . وقد طلبها من قبل وأبوها قبل ولكنها رفضت . وانتظروا لعلها تقبل مع مرور الزمن »

قلت لمحجوب : « لكن لماذا هذا الغرام الفجـــائى ؟ ود الريس يعرف حسنه بنت محمود منذ كانت طفلة . هل تذكرها وهى طفلة شرسة تتسلق الشجر وتصارع الاولاد ؟ كانت وهى فتاة تسبح معنا عارية فى النهر . ماذا جد الآن ؟ »

وقال محجوب : « ود الريس كهؤلاء الناس المغرمين باقتنـــاء الحمير ، الواحد منهم لا تعجبه الحمارة الا اذا رأى رجلا آخر راكبا

عليها . يراها حينئذ جميلة ويسعى جاهدا لشرائها حتى ولو دفع فيها أكثر مما تستحق » . وصمت مدة يفكر ثم قال : « ولكن الحقيقة ان بنت محمود قد تغيرت بمدزواجها من مصطفى سعيد . كل النسوان يتغيرن بعد الزواج . لكنها هي خصوصا تغيرت تغيرا لا يوصف . كأنها شخص آخر . حتى نحن أندادها الذين كنا نلعب معها في الحي ، ننظر اليها اليوم فنراها شيئا جديدا . هل تعرف ؟ كنساء المدن »

وسألت محجوب عن مصطفى سعيد فقال : « رحمه الله . كان يحترمني وكنت احترمه . لم تكن الصلة بيننا وثيقة أول الامر . ولكن عملنا معا في لجنة المشروع قرب بيننا . موته كان خسارة لا تعوض . هل تعلم ، لقد ساعدنا مساعدة قيمة في تنظيم المشروع. كان يتولى الحسابات . خبرته في التجارة أفادتنا كثيرا . وهو الذى اشار علينا باستغلال أرباح المشروع في اقامة طاحونة للدقيق . لقد وفرت علينا أتعابا كثيرة ، واصبح الناس اليوم يجيئونها من أطراف البلد . وهو الذى أشار علينا أيضا بفتح دكان تعاوني . الاسعار الآن عندنا لا تزيد عن الاسعار في الخرطوم . زمان ، كما تعلم ، كانت البضائع تأتي مرة أو مرتين في الشهر بالباخرة . كان التجار يخزنونها حتى تنقطع كلية من السوق ، ثم يبيعونها بأضعاف مضاعفة . المشروع يملك اليوم عشرة لوارى تجلب لنا البضائع كل يوم والآخر مباشرة من الخرطوم وأم درمان . ورجوته اكثر من مرة ان يتولى الرئاسة ولكنه كان يرفض ويقول انني أجدر منه . العمدة والتجار كانوا يكرهونه كراهية شديدة لانه فتح عيون اهل البلد وافسد عليهم امرهم . بعد موته قامت اشاعات بأنهم دبروا قتله . مجرد كلام . لقد مات غرقا . عشرات الرجال ماتوا غرقا ذلك العام . كان عقلية واسعة . ذلك هو الرجل الذى كان يستحق أن

يكون وزيرا فى الحكومة لو كان يوجد عدل فى الدنيا

فقلت لمحجوب : « السياسة أفسدتك . اصبحت لا تفكر الا فى السلطة . دعك من الوزارات والحكومة وحدثنى عنه كانسان . اى نوع من الناس كان هو ؟ »

وظهرت الدهشة على وجهه وقال : « ماذا تقصد اى نوع من الناس ؟ انه كان كما ذكرت لك »

ولم استطع ان أجد الكلمات المناسبة لاوضح لمحجوب قصدى . وقال هو :« مهما يكن ... ايش السبب فى اهتمامك بمصطفى سعيد ؟ لقد سألتنى عنه كذا مرة من قبل ؟ » واستطرد محجوب قبل ان ارد على كلامه : « تعرف ؟ لا افهم لماذا جعلك وصيا على ولديه . طبعا أنت تستحق شرف الامانة وقد قمت بها خير قيام . لكنك كنت اقلنا معرفة به . نحن معه هنا فى البلد ، وأنت كنت تراه من العام الى العام . كنت اتوقع أن يجعلنى او يجعل جدك وصيا . جدك كان صديقه الحميم .. كان يحب الاستماع الى حديثه . كان يقول لى : تعرف يا محجوب ؟ حاج احمد رجل فريد من نوعه . وكنت أقول له : حاج أحمد رجل مخرف . فيزعل جد ويقول : « لا ، لاتقل هذا . حاج أحمد جزء من التاريخ »

قلت لمحجوب : « أنا على اى حال وصى اسميا . الوصى الحقيقى هو أنت . الولدان هنا معك . وأنا بعيد فى الخرطوم »

فقال محجوب : « انهما ولدان ذكيان مؤدبان . فيهما مخايل أبيهما . سيرهما فى الدراسة أحسن ما يكون »

فقلت له : « ماذا يحدث لهما اذا تم موضوع الزواج المضحك الذى يريده ود الريس ؟ »

فقال محجوب : « هون عليك . حتما ود الريس سينشغل بامرأة أخرى . وعلى أسوأ الفروض تتزوجه . لا أظنه يعيش اكثر من عام

أو عامين . ويكون لها سهم في أرضه وزرعه الكثير »

ثم ، مثل ضربة مفاجئة تنزل على أم الراس ، نزل على قول محجوب : « لماذا لا تتزوجها أنت ؟ » خفق قلبي بين جنبي خفقانا كاد يفلت زمامه من يدي . ولم أجد الكلمات الا بعد مدة . قلت لمحجوب وصوتي يرتجف : « لا شك انك تمزح »

فقال : « جد . لماذا لا تتزوجها ؟ أنا متأكد انها ستقبل . انت وصي على الولدين ، وبالاحرى أن تتم الموضوع وتصبح أبا »

واحسست بعطرها ليلة امس ، وتذكرت الافكار التي نبتت في راسي بشأنها في الظلام . وسمعت محجوب يضحك ويقول : « لا تقل لي انك زوج واب . الرجال يتزوجون على زوجاتهم كل يوم . لن تكون أولهم ولا آخرهم »

وقلت لمحجوب ، وقد استعدت سيطرتي على نفسي ، وأنا أضحك أيضا : « انت مجنون حقا »

وتركته وذهبت ، وان كنت قد أيقنت من حقيقة ستأخذ كثيرا من راحة بالي فيما بعد . انني ، بشكل أو بآخر ، أحب حسنة بنت محمود ، أرملة مصطفى سعيد . وأنا ، مثله ومثل ود الريس وملايين آخرين ، لست معصوما من جرثومة العدوى التي يتنزى بها جسم الكون

(٧)

احتفلنا بختان الولدين وعدت للخرطوم . تركت زوجتى وابنتى فى البلد ، وسافرت فى الطريق الصحراوى فى سيارة من سيارات المشروع التى ذكرها محجوب . كنت اسافر عادة بالباخرة الى ميناء كريمة النهرى ، ومن هناك آخذ القطار مارا بأبى حمد وابــرا الى الخرطوم . لكننى هذه المرة كنت فى عجــلة من امرى دون سبب واضح ، ففضلت اختصار الطريق . وقامت السيارة فى أول الصباح ، وسارت شرقا حذاء النيل نحو ساعتين ، ثم اتجهت جنوبا فى زاوية مستقيمة وضربت فى الصحراء . لا يوجد مأوى من الشمس التى تصعد فى السماء بخطوات بطيئة وتصب اشعتها على الارض كان بينها وبين أهل الارض ثأرا قديما . لا مأوى سوى الظل الساخن فى جوف السيارة ، وهو ليس ظلا . طريق ممل يصعد ويهبط ، لا شىء يغرى العين . شجيرات مبعثرة فى الصحراء ، كلها أشواك ، ليست لها أوراق ، أشجار بائسة ليست حية ولا ميتة . تســير السيارة ساعات دون أن يعترض طريقها انسان أو حيوان . ثم نمر بقطيع من الجمال هى الاخرى عجفاء ضامرة . لا توجد سحابة واحدة تبشر بالامل فى هذه السماء الحارة ، كأنها غطاء الجحيم . اليوم هنا شىء لا قيمة له ، مجرد عذاب يتعذبه الكائن الحى فى انتظار الليل . الليل هو الخلاص . وفى حالة تقرب من الحمى طافت برأسى نتف من أفكار ، كلمات من جمل ، وصور لوجوه وأصوات تجىء كلها يابسة كالاعاصير الصغيرة التى تهب فى الحقول البور .

فيم العجلة ؟ سألتني : « فيم العجلة ؟ » قالت : « ولماذا تمكث أسبوعا آخر ؟ » قالت .. الحمارة السوداء ، اعرابي غش عمك وباعه الحمارة السوداء . وقال أبي : « هل هذا شيء يثير الغضب؟» عقل الانسان ليس محفوظا في ثلاجة . انها هـــذه الشمس التي لا تطاق . تذوب المخ . تشل التفكير . ومصطفى سعيد ، وجهــه ينبع واضحا في خيالي كما رأيته أول يوم ، ثم يضيع في أزيز محركات السيارة ، وصوت احتكاك العجلات بحصى الصـــحراء ، وأحاول جاهدا استعادته فلا أستطيع . يوم الاحتفال بختان الولدين ، خلعت حسنه الثوب عن رأسها ورقصت كما تفعل الام يوم ختان ولديها . يالها من امرأة . لماذا لا تتزوجها أنت ؟ كيف كانت ايزابيلا سيمور تناجيه ؟ « اغتلني أيها الغول الافريقي . احرقني في نار معبدك أيها الاله الاسود . دعني اتلوى في طقوس صلواتك العربيدة المهيجة » وها هنا منبع النار . ها هو المعبد . لا شيء . الشمس والصحراء ونباتات يابسة وحيوانات عجفاء . ويهتز كيان السيارة حين تنحدر في واد صغير . وتمر بعظام جمل نفق من العطش في هذا التيه . ويعود الى خيالي وجه مصطفى سعيد في وجه ابنه الاكبر . انه أكثر الولدين شبها به . يوم حفلة الختان أنا ومحجوب شربنا أكثر مما يجب . الناس في بلدنا لرتابة الحياة عندهم يجعلون من أي حدث سعيد مهما صغر عذرا لاقامة حفل كحفل العرس . جررته من يده بالليل ، والمغنون يغنون والرجال يصفقون في قلب الدار . وقفنا أمام باب الغرفة تلك . قلت له : « انا وحدي عندي المفتاح . باب من الحديد » . قال لي محجوب بصوته المخمور : « هل تدري ما بداخلها ؟ » قلت له : « نعم » . قال : « ماذا ؟ » فقلت وأنا أضحك تحت وطأة الخمر : « لا شيء . لا شيء اطلاقا » . هذه الغرفة عبارة عن نكتة كبيرة . كالحياة . تحسب فيها سرا وليس فيها

شيء . « لا شيء اطلاقا » . وقال محجوب : « انت سكران ، هذه الغرفة مليئة من أرضها الى سقفها بالكنوز . ذهب ، وجواهر ، ودرر ولآلى . هل تعلم من هو مصطفى سـعيد ؟ » قلت له ان مصطفى سعيد كان اكذوبة . وضحكت مرة اخرى ضحكة مخمورة وقلت له : « هل تريد أن تعرف حقيقة مصطفى سعيد ؟ » فقال محجوب : « انت لست سكران بل مجنونا أيضا . مصطفى سعيد هو فى الحقيقة نبى الله الخضر . يظهر فجأة ويغيب فجاة . والكنوز التى فى هذه الغرفة هى كنوز الملك سليمان حملها الجان الى هنا . وانت عندك مفتاح الكنز . « افتح ياسمسم ودعنا نفرق الذهب والجواهر على الناس » . وكاد محجوب يصرخ ويجمع الناس لولا اننى أغلقت فمه بيدى . وفى الصباح استيقظ كل واحد منا فى بيته لا ندرى كيف وصلنا . والطريق لا ينتهى عند حد ، والشمس لا تكل . لا غرو ان مصطفى سعيد هرب الى زمهرير الشمال . ايزابيلا سيمور قالت له : « المسيحيون يقولون ان الهم صلب ليحمل وزر خطاياهم . انه اذن مات عبثا . فما يسمونه الخطيئة ما هو الا زفرة الاكتفاء بمعانقتك يا اله وثنيتى . أنت الهى ، ولا اله غيرك» . لابد ان هذا هو سببانتحارها ، وليسمرضها بالسرطان . كانت مؤمنة حين قابلته . كفرت بدينها وعبدت الها كعجل بنى اسرائيل . يا للغرابة . يا للسخرية . الانسان لمجرد انه خلق عند خط الاستواء ، بعض المجانين يعتبرونه عبدا وبعضهم يعتبرونه الها . أين الاعتدال ؟ أين الاستواء ؟ وجدى بصوته النحيل وضحكته الخبيثة حين يكون على سجيته ، اين وضعه فى هذا البساط الاحمدى ؟ هل هو حقيقة كما ازعم انا وكما يبدو هو ؟ هل هو فوق هذه الفوضى ؟ لا أدرى . ولكنه بقى على اى حال ، رغم الاوبئة وفساد الحكم وقسوة الطبيعة . وانا موقن ان الموت حين يبرز له

سيبتسم هو في وجه الموت . الا يكفي هذا ؟ هل ابن آدم مطالب بأكثر من هذا ؟ وبرز لنا من وراء التل اعرابي جاء يهرول نحونا ، وقطع الطريق على السيارة فتوقفنا . بدنه وثيابه بلون الارض . وساله السائق ماذا يريد ؟ قال : « اعطوني سيجارة أو تنباك لوجه الله . لي يومان لم أذق طعم التنباك » . لم يكن عندنا تنباك فاعطيته سيجارة . وقلنا بالمرة نقف قليلا ونستريح من عناء الجلوس . لم أر في حياتي انسانا يشرب السجائر بتلك اللهفة . جلس الاعرابي على مؤخرته واخذ يشفط الدخان بنهم فوق الوصف . بعد دقيقتين مد لي يده فاعطيته سيجارة اخرى . التهمها كما فعل مع الاولى . ثم اخذ يتلوى على الارض كانه مصاب بالصرع . وبعدها تمدد على الارض وطوق راسه بيديه وهمد تماما كانه ميت . وظل هكذا طول مكوثنا ، زهاء ثلث ساعة . ولما دارت محركات السيارة ، هب واقفا ، انسانا بعث الى الحياة ، واخذ يحمدني ويدعو الله لي بطول العمر ، فرميت له علبة السجائر بما بقي فيها . وثار الغبار خلفنا ، وراقبت الاعرابي يجري نحو خيام مهلهلة عند شجيرات ناحية الجنوب ، عندها غنيمات واطفال عراة . أين الظل يا الهي ؟ مثل هذه الارض لا تنبت الا الانبياء . هذا القحط لا تداويه الا السماء . والطريق لا ينتهي والشمس لا ترحم ، والسيارة الآن تولول ولولة على ارض من الحصى مبسوطة كالمائدة . « انا قوم منقطع بنا فحدثونا أحاديث نتجمل بها » . من قال هذا ؟ ثم : « كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » . والسائق لا يتكلم . امتداد للمكنة التي يديرها ، يلعنها احيانا ويشتمها ، والارض حولنا دائرة غرقى في السراب . « وظل يرفعنا آل ويخفضنا آل وتلفظنا بيد الى بيد » . محمد سعيد العباسي ، ياله من شاعر . وابو نواس . « شربنا شرب قوم ظمئوا من عهد عاد » . هذه ارض اليأس والشعر ولا أحد

يغني . ولقينا سيارة حكومية معطلة حولها خمسة عساكر وشاويش متدرعين البنادق . وقفنا . شربوا من مائنا وأكلوا من زادنا واعطيناهم البنزين . قالوا ان امراة من قبيلة المريصاب قتلت زوجها والحكومة ذاهبة لتقبض عليها . ما اسمها ؟ ما اسمه ؟ لماذا قتلته ؟ لا يعلمون . فقط انها من قبيلة المريصاب وأنها قتلته وأنه زوجها . ولكنهم سيعرفونه . قبائل المريصاب والهواوير والكبابيش . القضاة المقيم منهم والمتنقل . مفتش شمالي كردفان ، مفتش جنوبي الشمالية ، مفتش شرقي الخرطوم . الرعاة على مساقط الماء . المشايخ والنظار . البدو في خيام الشعر ، في مفارق الوديان . كلهم سيعرفون اسمها ، فليس كل يوم تقتل امراة رجلا ، بله زوجها ، في هذه الارض التي لم تترك الشمس فيها قتلا لقاتل . وخطرت لي فكرة ، قلبتها في ذهني ثم قررت أن أعبر عنها وأرى ما يحدث . قلت لهم انها لم تقتله بل هو مات من ضربة الشمس ، كما ماتت ايزابيلا سيمور وشيلا غرينود وآن همند وجين مورس . لم يحدث شيء . وقال الشاويش : « كان عندنا قمندان بوليس ملعون اسمه ماجور كوك » . لا فائدة . لا دهشة . وساروا وسرنا . الشمس هي العدو . انها الآن في كبد السماء تماما ، كما يقول العرب . يا للكبد الحرى . وستظل هكذا ساعات لا تتحرك ، أو هكذا يخيل للكائن الحي ، حتى يئن الحجر ويبكي الشجر ويستغيث الحديد . بكاء امراة تحت رجل عند الفجر . وفخذان بيضاوان مفتوحتان . هما الآن كعظام الجمال الجافة المتناثرة في الصحراء . لاطعم . لا رائحة . لا خير . لا شر . عجلات السيارة تصدم الحصى بحقد . طريقه المعوج سرعان ما يؤدي به الى الكارثة . وفي الغالب تكون الكارثة واضحة أمامه وضوح الشمس ، بحيث اننا نعجب كيف ان رجلا ذكيا كهذا ، هو في الحقيقة في غاية الغباء . انه منح قدرا عظيما

من الذكاء ولكنه حرم الحكمة . انه أحمق ذكى . هذا ما قاله القاضي فى الاولد بيلى قبل أن يصدر الحكم . والطريق لا ينتهى والشمس واضحة وضوح الشمس . سأكتب لمسز روبنسن . تعيش فى شانكلن فى آيل اف وايت . علق عنوانها بذاكرتى من حديث مصطفى سعيد تلك الليلة . زوجها مات بالتايفوئيد ودفن فىالقاهرة فى مقبرة الامام الشافعى . نعم ، اعتنق الاسلام . مصطفى سعيد قال ،انها حضرت المحاكمة من أولها الى آخرها . كان هادئا طول المدة . بعد أن صدر الحكم بكى على صدرها . مسحت رأسه وقبلته على جبهته وقالت : « لا تبك يا طفلى العزيز » . لم تكن تحب جين مورس . حذرته من زواجها . سأكتب لها فلعلها تلقى الضوء ، لعلها تذكر أشياء هو نسيها أو أهمل ذكرها . وانتهت الحرب فجأة بالنصر . شفق المغيب ليس دما ولكنه خناء فى قدم المرأة ، والنسيم الذى يلاحقنا من وادى النيل يحمل عطرا لن ينضب فى خيالى ما دمت حيا . وكما تحط قافلة رحالها حططنا رحلنا .

بقى من الطريق أقله . طعمنا وشربنا . صلى أناس صلاة العشاء والسواق ومساعدوه أخرجوا من اضابير السيارة قنانى الخمر ، وأنا استلقيت على الرمل واشعلت سيجارة وتهت فى روعة السماء .

والسيارة ايضا سقيت الماء والبنزين والزيت ، وهى الآن ساكنة راضية كمهرة فىمراحها . انتهت الحرب بالنصر لنا جميعا ، الحجارة والاشجار والحيوانات والحديد ، وأنا الآن تحت هذه السماء الجميلة الرحيمة احس اننا جميعا اخوة . الذى يسكر والذى يصلى والذى يسرق والذى يزنى والذى يقاتل والذى يقتل . الينبوع نفسه . ولا أحد يعلم ماذا يدور فى خلد الاله . لعله لا يبالى . لعله ليس غاضبا . فى ليلة مثل هذه تحس انك تستطيع أن ترقى الى السماء على سلم من الحبال . هذه أرض الشعر والممكن وابنتى

أسمها آمال . سنهدم وسنبنى وسنخضع الشمس ذاتها لارادتنا وسنهزم الفقر بأى وسيلة . السواق الذى كان صامتا طول اليوم ها قد ارتفعت عقيرته بالغناء . صوت عذب سلسبيل لا تحسب أنه صوته . يغنى لسيارته كما كان الشعراء فى الزمن القديم يغنون لجمالهم :

در كسونك مخرطة وقايم على بولاد
وغير ست النفور الليلة ما فى رقاد

وارتفع صوت آخر يجاوبه :

ناوين السفر من دار كول والكمبو
هوزز راسه فرحان بالسفر يقنبه
أبو دومات غرفن عرقه اتنادن به
ضرب الفجة وأصبح ناره تاكل الجنبه

ثم نبع صوت ثالث يجاوب الصوتين :

واوحيحى ووا وجع قلبى
من صيدة القنص الفترت كلبى
القارى العلم من دينه بتسلبى
والماشى الحجاز من جده بتقلبى

نحن هكذا وكل سيارة تمر بنا طالعة أو نازلة ، تقف ، حتى اجتمعت قافلة عظيمة ، أكثر من مائة رجل طعموا وشربوا وصلوا وسكروا . ثم تحلقنا حلقة كبيرة ، ودخل بعض الفتيان وسط الحلقة ورقصوا كما ترقص البنات . وصفقنا وضربنا الارض بأرجلنا وحمحمنا بحلوقنا ، وأقمنا فى قلب الصحراء فرحا للاشىء . وجاء أحد بمذياعه الترانزستور ، وضعناه وسط الدائرة ، وصفقنا ورقصنا على غنائه . وخطرت لأحد فكرة ، فصف السواقون سياراتهم على هيئة دائرة وسلطوا أضواءها على حلقة الرقص ،

فاشتعلت شعلة من الضوء لا احسب تلك البقعة رات مثلها من قبل . وزغرد الرجال كما تزغرد النساء وانطلقت أبواق السيارات جميعا فى آن واحد . وجلب الضوء والضجة البدو من شعاب الوديان وسفوح التلال المجاورة ، رجال ونساء ، قوم لا تراهم بالنهار كأنهم يذوبون تحت ضوء الشمس . اجتمع خلق عظيم ودخلت الحلقة نساء حقيقيات ، لو رأيتهن نهارا لما أعرتهن نظرة ، ولكنهن جميلات فى هذا الزمان والمكان . وجاء اعرابى بخروف وكاه وذبحه وشوى لحمه على نار أوقدها . واخرج أحد المسافرين من السيارة صندوقين من البيرة وزعهما وهو يهتف : « فى صحة السودان . فى صحة السودان » . ودارت صناديق السجائر وعلب الحلوى ، وغنت الاعرابيات ورقصن ، وردد الليل والصحراء أصداء عرس عظيم كأننا قبيل من الجن . عرس بلا معنى ، مجرد عمل يائس نبع ارتجالا كالاعاصير الصغيرة التى تنبع فى الصحراء ثم تموت . وعند الفجر تفرقنا . عاد الاعراب أدراجهم الى شعاب الاودية . تصايح الناس : « مع السلامة . مع السلامة » . وركضوا كل الى سيارته . ازت المحركات ، وتحولت الاضواء من المكان الذى كان قبل لحظات مسرح أنس ، فعاد الى سابق عهده ، جزءاً من الصحراء . واتجهت أضواء السيارات ، بعضها نحو الجنوب صوب النيل، وبعضها نحو الشمال صوب النيل . وثار الغبار واختفى ثم ثار واختفى . وادركنا الشمس على قمم جبال كررى أعلى أم درمان

(٨)

دارت الباخرة حول نفسها حتى لا تكون المحـــــركات فى مجرى التيار . كل شيء كما يحدث كل مرة . الصفارة المبحوحة ، والقوارب من الشاطيء المقابل ، شجر الجميز واللغط على رصيف المحطة . الا من فارق عظيم . وخرجت وصافحنى محجوب وهو يتجنبنى بنظراته . كان وحده فى استقبالى هذه المرة . وكان خجلا كأنه يحس بالذنب ، او كأنه يحملنى أنا المسئولية . ولم أكد أصـــــافحه حتى قلت له : « كيف تركتم هذا يحدث ؟ » قال محجوب وهو يسوى سرج الحمارة السوداء الطويلة ، حمـــارة عمى عبد الكريم : « الذى كان . الولدان بخير وهما عندى » . اننى لم أفكر فى الولدين طوال هذه الرحـــلة المشئومة . كنت افكر فيها . قلت لمحجوب مرة أخـــرى : « ماذا حدث ؟ » لا يزال يتجنب وجهى . ظل صامتا . أصلح الفروة على السرج ، وربط البطان حول بطن حمــــاره . أزاح السرج الى الامام قليلا وأمسك عنان اللجام ثم قفز . ظللت واقفا انتظر الرد الذى لم يأت ، فقفزت انا أيضا . قال وهو يلكز حماره : « كما أخبرتك فى البرقية . لا فائدة من الخوض فى الموضوع . لم نكن نتوقع حضورك على أى حال » . قلت له أشجعه على الكلام : « ليتنى عملت بنصيحتك وتزوجتها » . لم أستفد سوى اننى زدت صمته عمقا . ولا بد أنــه كان غاضبا ، فقد لكز الحمارة لكزة قوية بكعبه والحمارة لم تفعـــل شيئا . قلت له وأنا الاحقه ولا ألحقه : « منذ وصلتنى برقيتك وأنـــا لم آكل ولم أنم ولم أتكلم مع انسان . ثلاثة أيام من الخرطوم بالقطار

والباخرة وأنا أفكر وأسـال نفسى كيف حـدث ما حـدث ولا أجـد الجواب » • وكأنما رثى لحالى فقال بعطف : « هذه أسرع مرة تعـود فيها الى البلد » • قلت له : « نعم • اثنان وثلاثون يوما بالضبط » • قال : « هل من جديد فى الخرطوم ؟ » قلت له : « كنا مشـغولين فى مؤتمر » • بدا الاهتمام على وجهه ، فانه يحب أخبار الخـرطوم ، خاصة أخبار الفضائح والرشاوى وفساد الحكام • قال باهتمام بالغ واضح ، وقد حز فى نفسى أنه نسى ما نحن فيه : « بماذا يأتمـرون هذه المرة ؟ » قلت له باعياء ، وقد فضلت اختصار الطريق : « وزارة المعارف نظمت مؤتمرا دعت له مندوبين عن عشرين قطرا افريقيـا لمناقشة سبل توحيد أساليب التعليم فى القارة كلها • كنت أنا عضوا فى سكرتارية المؤتمر » • قال محجوب : « فليبنـوا المدارس أولا ثم يناقشوا توحيد التعليم • كيف يفكر هؤلاء الناس ؟ يضيعون الوقت فى المؤتمرات والكلام الفارغ ونحن هنا أولادنا يسافرون كذا ميـلا للمدرسة • ألسنا بشرا ؟ ألسنا ندفع الضرائب ؟ أليس لنا حـق فى هذا البلد ؟ كل شىء فى الخرطوم • ميزانية الدولة كلها تصرف فى الخرطوم • مستشفى واحد فى مروى نسافر له ثلاثة أيام • النساء يمتن أثناء الوضع • لا توجد داية واحدة متعلمة فى هذا البلد • وأنت ماذا تصنع فى الخرطوم ؟ ما الفائدة أن يكون لنا ابن فى الحـكومة ولا يفعل شيئا ؟ »

كانت حمارتى قد فاتته ، فجذبت لجامها حتى يلحق بى وآثـرت الصمت • لو كان الوقت غير هذا الوقت لصرخت فى وجهه ، فأنا وهو هكذا منذ طفولتنا ، يصرخ أحدنا على الآخر حين يغضب • ثم نرضى وننسى • ولكننى جائع ومتعب وقلبى مثقل بهم عظيم • لو كان الزمان أحسن مما هو عليه الآن ، لاضحكته واغضبته بقصص ذلك المؤتمـر • لن يصدق ان سادة افريقيا الجدد ، ملس الوجوه ، افواههم كأفـواه

الذئاب ، تلمع فى أيديهم ختم من الحجارة الثمينة ، وتفوح نواصيهم برائحة العطر ، فى أزياء بيضاء وزرقاء وسوداء وخضراء من الموهير الفاخر والحرير الغالى تنزلق على أكتفاهم كجلود القطط السيامية ، والاحذية تعكس أضواء الشمعدانات ، تصر صريراً على الرخام — لن يصدق محجوب أنهم تدارسوا تسعة أيام فى مصير التعليم فى أفريقيا فى « قاعة الاستقلال » التى بنيت لهذا الغرض ، وكلفت أكثر من مليون جنيه ، صرح من الحجر والاسمنت والرخام والزجاج ،مستديرة كاملة الاستدارة ، وضع تصميمها فى لندن ، ردهاتها من رخام أبيض جلب من ايطاليا ، وزجاج النوافذ ملون ، قطع صغيرة مصفوفة بمهارة فى شبكة من خشب التيك ، أرضية القاعة مفروشة بسجاجيد عجمية فاخرة ، والسقف على شكل قبة مطلية بماء الذهب ، تتدلى من جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم . المنصة حيث تعاقب وزراء التعليم فى أفريقيا طوال تسعة أيام من رخام أحمر كالذى فى قبر نابليون فى الانفاليد ، وسطحها أملس لماع من خشب الابنوس . على الحيطان لوحات زيتية ، وقبالة المدخل خريطة واسعة لافريقيا من المرمر الملون ، كل قطر بلون . كيف اقول لمحجوب ان الوزير الذى قال فى خطابه الضافى الذى قوبل بعاصفة من التصفيق : « يجب الا يحدث تناقض بين ما يتعلمه التلميذ فى المدرسة وبين واقع الشعب . كل من يتعلم اليوم يريد أن يجلس على مكتب وثير تحت مروحة ويسكن فى بيت محاط بحديقة مكيف بالهواء . يروح ويجىء فى سيارة امريكية بعرض الشارع . اننا اذا لم نجتث هذا الداء من جذوره تكونت عندنا طبقة برجوازية لا تمت الى واقع حياتنا بصلة ، وهى اشد خطراً على مستقبل أفريقيا من الاستعمار نفسه » — كيف أقول لمحجوب ان هذا الرجل بعينه يهرب أشهر الصيف من أفريقيا الى فيلته على بحيرة لوكارنو ، وان زوجته تشترى حاجياتها من هرودز

فى لندن ، تجيئها فى طائرة خاصة ، وأن أعضـــاء وفــده أنفسهم يجاهرون بأنه فاسد مرتش ، ضيع الضياع وأقام تجارة وعمـــارة ، وكون ثروة فادحة من قطرات العرق التى تنضح على جباه المستضعفين أنصاف العراة فى الغابات ؟ هؤلاء قوم لا هم لهم الا بطونهم وفروجهم. لا يوجد عدل فى الدنيا ولا اعتدال • وقد قال مصطفى سعيد : « انما أنا لا اطلب المجد ، فمثلى لا يطلب المجد » • لو انه عاد عودة طبيعية لانضم الا قطيع الذئاب هذا • كلهم يشبهونه ، وجوه وسيمة ووجوه وسمتها النعمة • وقد قال أحد الوزراء أولئك فى حفلة اختتام المؤتمر انه كان أستاذه • أول ما قدمونى له هتف : « انك تذكرنى بصديق عزيز كنت على صلة وثيقة به فى لندن • الدكتـــور مصطفى سعيد • كان أستاذى عام ١٩٢٨ • كان هو رئيسا لجمعية الكفاح لتحـــرير افريقيا وكنت أنا عضوا فى اللجنة • يا له من رجل • انه من أعظم الافريقيين الذين عرفتهم • كانت له صلات واسعة • يا الهى ، ذلك الرجل . كانت النساء تتساقط عليه كالذباب . كان يقول سأحرر افريقيا ب ..... » • وضحك حتى بانت مؤخرة حلقه • وأردت أن أسأله ، لكنه اختفى فى زحمة الرؤساء والوزراء • مصطفى سعيد لم يعد يعنينى الآن ، فقد شغلت عنه بنفسى • برقية محجوب غيرت كل شىء • حين قرأت رد مسز روبنسن على رسالتى أول مرة أحسسـت بفرح عظيم • وفى القطار قرأتها للمرة الثانية ، محـــاولا أن أبعـــد أفكارى عن تلك النقطة التى صـــارت محـــور دورانها • ولكن دون جدوى

ومضت الحمير تتقاذف الحجارة بأظلافها ، وقال محجوب : « لماذا صمت كأنك ابكم ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟ » قلت له « الموظفون امثالى لا يستطيعون أن يغيروا شيئا • اذا قال سادتنا افعلوا كذا فعلنـــا • أنت رئيس الحزب الوطنى الاشتراكى الديموقراطى هنا • انه الحزب

الحاكم . لماذا لا تصب غضبك عليهم ؟ »

وقال محجوب كالمعتذر : « لولا ... لولا ان هذه الكارثة قد ... يوم الحادث كنا نتأهب للسفر في وفد للمطالبة ببناء مستشفى كبير ومدرسة وسطى للبنين ومدرسة أولية للبنات ومدرسة زراعة و... » وقطع خطبته فجأة ولاذ بصمته الغاضب . ونظرت انا الى النهر الى يسارنا يلمع بالخطر ويدوى باصوات مبهمة . ثم أمامنا القباب العشر وسط المقبرة . وحزت الذكرى في قلبي، وقال محجوب: « دفناها اول الصباح دون ضوضاء . أمرنا النساء ألا يبكين . لم نقم ماتما ولم نخبر أحدا . كان سيجيئنا البوليس . وتحقيق وفضائح ». قلت له بذعر : « لماذا البوليس ؟ » نظر الى برهة ثم سكت ، وبعد مدة طويلة قال : « بعد أسبوع أو عشرة أيام من سفرك ، أبوها قال أنه أعطى ود الريس وعدا . عقدوا له عليها . أبوها شتمها وضربها وقال لها : تتزوجينه رغم انفك . أنا لم أحضر العقد . لم يحضر أحد العقد غير بكرى وجدك وبنت مجذوب . أصدقاؤه . أنا شخصيا حاولت ان أثنى ود الريس عن عزمه ، ولكنه أصر . كأنما أصابه هوس . وكلمت أباها فقال انه لا يصبح أضحوكة ، يقول الناس ابنته لا تسمع كلامه . بعد الزواج قلت لود الريس يأخذها بالسياسة . اقامت عنده أسبوعين لا تكلمه ولا يكلمها . كانت ... كان في حالة لا توصف . كالمجنون . اشتكى لطوب الارض . يقول كيف تكون في بيته امرأة تزوجها بسنة الله ورسوله ولا يكون بينهما ما يكون بين الزوج وزوجته . كنا نقول له : اصبر . ثم ... »

الحمار والحمارة نهقا بغتة في آن واحد حتى كدت أسقط من على السرج . ولبثت أسأل يومين بطولهما ولا أحد يقول لي . كلهم كانوا يتجنبونني بنظراتهم كأنهم شركاء في اثم عظيم . وقالت لي أمي : « لماذا تركت عملك وجئت ؟ » قلت لها : « الولدان » . نظرت الي برهة

نظرة فاحصة وقالت : « الاولاد ، أم ، أم الاولاد ؟ ماذا بينك وبينها ؟ جاءت لابنك وقالت له بلسانها : قولوا له يتزوجنى . يا للجــــراة وفراغة العين . « نساء آخر زمن » . وكله كوم والفعل القبيح الذى فعلته كوم »

وجدى أيضا لم يسعفنى بشيء . وجدته راقدا على سريره فى حالة من الاعياء لم أعرفها فيه . كان كانما ينبوع الحياة عنده قد نضــب نجاة . ظللت جالسا وظل هو لا يتكلم . فقط يتأوه من آن لاخــر ، ويتقلب على سريره ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . كلما فعــل ذلك أحس بوخز ، كان بينى وبين الشيطان سببا . وبعد انتظار طويل قال يخاطب سقف الغرفة : « لعنــة الله على النســوان . النســوان اخوات الشيطان . ود الريس ، ود الريس » . وانفجر جدى يبكى . التى لم أره يبكى فى حياتى . بكى طويلا ثم مسح دموعه بطرف ثوبه وصمت حتى ظننته قد نام . بعد زمن قــال : « رحمة الله عليك يا ود الريس . اللهم أغفر له وتغمده برحمتك » . وتمتم بدعــوات وقال : « كان رجلا عديم النظير ، دائما يضحك ، دائما تجــده وقت الشدة . لم يطلب منه أحد حاجة وقال لا . ليته سمع كلامى . ينتهى هذه النهاية . لاحول ولا قوة الا بالله . اول مرة يحصل شيء مثــل ذلك فى هذا البلد منذ خلقه الله . محن آخــر الزمن » . تشجعت وسألته : « ماذا حدث ؟ »

لم يحفل بسؤالى وتشاغل زمنا بمسبحته ثم قال : « تلك القبيلة لا يجيء من ورائها الا الشر . قلت لود الريس : هـــذه المرأة شؤم . ابعد عنها . أنما الاجل ... » .

فى صبيحة اليوم الثالث حملت زجاجة الوسكى فى جيبى وذهبت الى بنت مجذوب . اذا لم تقل لى بنت مجــذوب فلن يقول لى أحد . وضبت بنت مجذوب من الزجاجة فى اناء كبير من الالمون ، وقالت :

« لا بد انك تريد شيئا • نحن لا نعرف هنا مثل خمر المدن هذه »

قلت لها : « أريد أن أعرف ما حدث • لا أحد يريد أن يخبرني »

شربت جرعة كبيرة من الاناء وقطبت وجهها وقالت : « الفعل الذي فعلته بنت محمود لا يجرى به اللسان • شيء ما رأينا ولا سمعنا بمثله لا في الزمن السابق ولا اللاحق »

وتماسكت ، ولبثت أنتظر صابرا حتى مضى ثلث الزجاجة والخمر لا تؤثر فيها ، إلا من بهجة وجهها تزداد وضوحا مع الشراب • أغلقت بنت مجذوب الزجاجة وقالت : « هذا يكفي • خمر النصارى هذه جبارة ، ليست كعرق التمر »

نظرت اليها بضراعة فقالت : « الكلام الذي سأقوله لك لن تسمعه من انسان في البلد • دفنوه مع بنت محمود ومع ود الريس المسكين • كلام عيب صعب أن يقال » • ثم نظرت الى نظرة فاحصة بعينيها الجريئتين وقالت :

« هذا كلام لن يعجبك • خصوصا اذا ... » وأطرقت برهة فقلت لها : « أريد أن أعرف ما حدث كبقية الناس • لماذا أنا الوحيد الذي لا يصح له أن يعرف ؟ »

أعطيتها سيجارة جذبت منها نفسا وقالت : « بعد صلاة العشاء بزمن استيقظت على صراخ حسنة بنت محمود في دار ود الريس. كان البلد ساكنا لا تسمع فيه حسا • الحق لله انني ظننت أن ود الريس اخيرا نال حقه منها • الرجل المسكين اشرف على الجنون • أسبوعين مع المرأة لا تكلمه ولا تدعه يقربها • وفتحت أذني مدة وهي تصرخ وتولول • اللهم يا رب اغفر لي • ضحكت وأنا أسمع صراخها • قلت في نفسي : ود الريس ما تزال فيه بقية • واشتد الصراخ • وسمعت حركة في بيت بكري لصق بيت ود الريس • وسمعت بكري يصيح : يا راجل اختشى على دمك • لازم تعمل لك فضيحة وهلولة • ثم

سمعت سعيدة امرأة بكرى تقول : يا بت احفظى شرفك ، ما هـذه الفضائح ؟ العروس البكر لا تعمل هذا العمل . كانك لم تجربى الرجال من قبل . وأخذ صراخ بنت محمود يشتد ، ثم سمعت ود الريس يصرخ بأعلى صوته : يا بكرى . يا حاج أحمد . يا بت الريس . يا جماعة . بنت محمود قتلتنى . قفزت وثوبى يجرجر ورائى لايكاد يسترنى ، وخطيت باب بكرى وباب محجوب ، وجريت الى باب ود الريس فوجدت باب الحوش مغلقا . ولولت بأعلى صوتى وجاء محجوب ثم بكرى ثم اجتمع علينا الناس . ونحن نكسر باب الحوش سمعنا صرخة . صرخة واحدة تهد الجبال من ود الريس . ثم صرخة مثلها من بنت محمود . ودخلنا أنا ومحجوب وبكرى . قلت لمحجوب : احبس الناس من دخول البيت . لا تدع امرأة تدخل البيت . وخرج محجوب وصرخ فى الناس ، وعاد ومعه عمك عبد الكريم وسعيد والطاهر الرواسى وحتى جدك المسكين جاء من بيته »

أخذ العرق يتصبب بغزارة من وجه بنت مجذوب . وجف حلقها وأشارت الى الماء فجئتها به . شربت ومسحت العرق من وجهها وقالت : « أستغفر الله العظيم وأتوب اليه . وجدناهما فى غرفة ود الريس القصيرة المطلة على الشارع . كان المصباح موقدا . ود الريس عار كما ولدته أمه . وبنت محمود ثوبها ممزق وسراويلها . هى الاخرى عارية . كان البرش الاحمر يعوم فى الدم . ورفعت المصباح . وجدت بنت محمود معضوضة ومخدشة فى كل شبر من جسمها . بطنها . أوراكها . رقبتها . عض حلمة نهدها حتى قطعها . الدم يسيل من شفتها السفلى . لا حول ولا قوة الا بالله . وود الريس مطعون أكثر من عشر طعنات . طعنته فى بطنه وفى صدره وفى محسنه » . ولم تستطع بنت مجذوب أن تستمر . بلعت ريقها

بصعوبة وارتعش حلقومها ثم قالت : « اللهم لا اعتراض على حكمك . وجدناها على ظهرها والسكين مغروز في قلبها . فمها مفتوح ، وعيناها تبحلقان كأنها حية . وود الريس لسانه مدلدل بين فكيه ،وذراعـاه مرفوعتان فى الهواء »

وغطت بنت مجذوب وجهها بيدها والعرق يتصبب من بين أصابعها وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة وتتابع . قالت بصـــعوبة : « أستغفر الله العظيم . كانا قد ماتا لساعتهما . كان الدم حارايبقبق من قلب بنت محمود وبين فخـــذى ود الريس . الدم مـلأ البرش والسرير وجرى جداول فى أرض الغرفة . محجوب أطال الله عمـره كان رابط الجاش . حين سمع صوت محمود قفز خارجا وقال لابيك : اياك أن تدعه يدخل . محجوب وبقية الرجال حملوا ود الريس ، وأنا وزوجة بكرى والنساء الكبار اخـــذنا بنت محمود . كفنـــاهما فى ليلتهما . وحملوهما قبل طلوع الشمس . ودفنوهما ، هى بجـــوار أمها وهو بجوار زوجته الاولى بنت رجب . بعض النساء بدأن ماتما . ولكن محجوب بارك الله فيه جاء ونهرهن وقال : التى تفتح فمهــا سأقطع رقبتها . أى ماتم يا ولدى يقام فى هذه الحالة ؟ هذه مصيبة كبيرة حصلت فى البلد . طول حياتنا تحت ستر الله . آخر الزمـن يحصل علينا مثل هذا . أستغفرك واتوب اليك يا رب »

وبكت هى أيضا كما بكى جدى . بكت طـــويلا وبحـــرقة ، ثم ابتسمت من خلال دموعها وقالت : « العجيب فى الامر أن زوجتـــه الكبيرة مبروكة لم تصحُ من نومها طول هذه المدة ، مع أن الصـــياح جذب الناس من طرف المحلة . رحت اليها وهززتها فرفعت راســها وقالت : « بنت مجذوب ، ماذا جاء بك فى هذا الوقت ؟ » قلت لها : « قومى . حصلت قتلة فى بيتكم » . فقالت : « قتلة من ؟ » قلت لها : « بنت محمود قتلت ود الريس وقتلت نفسها » . فقالت : « لى ستين

داهية » ، وواصلت نومها . وكنا ونحن نجهز بنت محمود نسمع شخيرها . ولما عاد الناس من الدفن وجدناها جالسة تشرب قهوتها . بعض النساء أردن أن يبكين معها فصرخت فيهن : « يا نساء . كل واحدة تروح فى حالها . ود الريس حفر قبره بيده . وبنت محمود بارك الله فيها ، خلصت منه القديم والجديد » . ثم زغردت . أى والله يا ولدى ، زغردت . وقالت للنساء : « نكاية فيكن . التى لا يعجبها تشرب من البحر » . أستغفر الله العظيم . أبوها .. محمود فى تلك الليلة كاد يهلك من البكاء . يخور كالثور . وجدك شتم وضرب بعصاه وزعق وبكى . عمك عبد الكريم اشتبك مع بكرى دون سبب . قال له : يحصل ذبح بجوارك وانت نائم ؟ البلد كلها كأنما حل عليه الشياطين فى تلك الليلة . محجوب وحده كان رابط الجأش . جهز كل شىء . أحضر الأكفان لا ندرى من أين . أولاد ود الريس عملوا دوشة فأسكتهم . منظر لا أراك الله مثله يا ولدى ، يفطر القلب ، يشيب الوليد . وكله بلا سبب ولا طلب . انها قبلت الرجل الغريب ، لماذا لم تقبل ود الريس ؟ »

الحقول نيران ودخان . هذا اوان الاستعداد لزراعة القمح . ينظفون الارض ويجمعون اعواد الذرة والجذوع الصغيرة ، ذكريات الموسم الذى انتهى ، ويكومونها اكواما وسط الحقول ويحرقونها . الارض سوداء مبسوطة تستعد للحدث القادم . الرجال قاماتهم منحنية على المعاول وبعضهم خلف المحاريث . قمم النخل ترتعش للهواء الخفيف وتسكن ، وبخار حار يتصاعد من حقول البرسيم المروية ، تحت وطأة الشمس فى منتصف النهار . ومع كل هبة ريح يفوح أريج الليمون والبرتقال واليوسفندى . خوار ثور أو نهيق حمار أو صوت فأس فى الحطب . ولكن الدنيا قد تغيرت .

ووجدت محجوبا ملطخا بالطين ، يندى العرق من جسمه العارى الا

من خرلة حول وسطه ، يحاول ان يفصل شتلة عن النخلة الام . لم احيه ولم يلتفت الى وظل يحفر حول الشتلة . لبثت واقفا اراقبه ، ثم اشعلت سيجارة ومددت له الصندوق ، فرفض باشارة من رأسه . حملت همى الى جذع نخلة قريبة اسندت رأسى اليه . لا مكان لى هنا . لماذا لا احزم حقيبتى وارحل ؟ هؤلاء القوم لا يدهشهم شيء . حسبوا لكل شيء حسابه . لا يفرحون لمولد ولا يحــزنون لمـــوت . حين يضحكون يقولون : « استغفر الله » وحين يبكون يقولون : «استغفر الله » . لا يقولون : وانا ماذا تعلمت ؟ تعلموا الصمت والصبر من النهر والشجر . وانا ماذا تعلمت ؟ ولاحظت محجوبا عاضا شفته السفلى كعادته حين يكون مصمما على عمل . كنت اغلبه فى المصارعة والجرى ، ويغلبنى فى سباحة النهر الى الشاطيء الآخر وتســلق النخل . لا تستعصى نخلة عليه . بينى وبينـــه من الود كأنه اخ شقيق . ولعن محجوب النخلة الصغيرة حين نجح اخيرا فى فصلها عن جذع امها دون أن يكسر جذورها . ردم بالتراب الجرح الكبير الذى بقى فى الجذع حيث كانت ، وقص جريد الشتلة ، وازال عنهـــا التراب ، ورماها لتجف فى الشمس . قلت فى نفسى انه سيكون اكثر استعدادا للكلام الآن . جاء الى الظل حيث انا وجلس ومد رجليه . ظل صامتا برهة ثم تنهد وقال : « استغفر الله » . مد يده فأعطيته سيجارة . لا يدخن الا حين اكون انا فى البلد ، يقول : « نحرق فلوس الحكومة » . رمى السيجارة قبل ان يكملها وقال : « انت تبدو مريضا . لابد ان الرحلة قد ارهقتك . لم يكن يلزم حضورك . حين ارسلت لك البرقية لم اكن اتوقع ان تحضر » .

قلت كأننى احدث نفسى : « انها قتلته وقتلت نفسها . طعنته اكثر من عشر طعنات و .. يا للبشاعة » .

التفت الى بدهشة وقال : « من اخبرك ؟ »

مضيت غير مكترث لسؤاله : « عض حلمة نهدها حتى قطعهـــا وعضها وخدشها في كل شبر في جسمها . يا للبشاعة » .

صاح محجوب بغضب : « لابد ان بنت مجذوب هي التى اخبرتك. لعنها الله . لا تمسك لسانها . هذا كلام لا يصح ان يقال » .

قلت له : « يقال او لا يقال ، انه حدث . حدث امام اعينكم ولم تفعلوا شيئا . وانت .. انت زعيم ورئيس في البلد ولم تفعل شيئا » .

وقال محجوب : « ماذا نفعل ؟ لماذا لم تفعل انت ؟ لماذا لم تتزوجها؟ فقط تفلح في الكلام . المراة هي التى تجرأت وقالت . عشنا ورأينا النساء تخطب الرجال » .

قلت له : « ماذا قالت ؟ »

قال : « الذى كان .قد كان . ما فائدة الكلام ؟ احمد الله انك لم تتزوجهـــا . الفعل الـــذى فعلته ليس فعـل بنى آدم . فعل شياطين » .

قلت له وانا اضغط على اسنانى : « ماذا قالت ؟ »

نظر الى دون عطف وقال : « حين راح لها ابوها وشتمها جاءتنى فى البيت مع شروق الشمس . قالت تخلصها من ود الريس وزحمة الخطاب . فقط تعقد عليها . لا تريد منك شيئا . قالت : يتركنى مع ولدى ، لا اريد منه قليلا ولا كثيرا . قلت لهـــا لا ندخلك فى المشاكل . نصحتها ان تقبل الامر الواقع . ابوها ولى امرها وهو حر التصرف . قلت لها : ود الريس لن يعيش الى الابد . رجل مجنون وامرأة مجنونة . ما ذنبنا نحن ؟ ماذا كان بوسعنا ان نفعل ؟ مسكين ابوها . منذ ذلك اليوم المشئوم وهو طريح الفراش . لا يخرج ولا يقابل احدا . ماذا افعل انا او غيرى اذا كان العـــالم قد اصيب بالخبل ؟ واتضح ان جنون بنت محمود ليس مثله فى الاولين ولا الآخرين » .

قلت له وأنا أبذل جهـــدا كبـيرا حتى لا أبكي : « حسنه لم تكن مجنونة . كانت أعقل امرأة فى البلد . انتم المجانين . كانت اعقل امرأة فى البلد ، وأجمل امرأة فى البلد . حسنه لم تكن مجنونة »

ضحك محجوب . قهقه بالضحك . سمعته يقول ويضـــحك : « يا للعجب . يابنى آدم اصح لنفسك . عد لصوابك . أصبحت عاشقا آخر الزمن . جننت مثــل ود الريس . المدارس والتعليم رهفت قلبك . تبكى كالنســـــاء . أما والله عجايب . حب ومرض وبكاء . انها لم تكن تساوى مليما . لولا الحياء ماكانت تســـتاهل الدفن . كنا نرميها فى البحر أو نترك جثتها للصقور »

الذى حدث بعد ذلك ليس واضحا تماما فى ذهنى . ولكنى اذكر .. يدى مطبقتين على حلق محجوب ، وأذكر جحوظ عينيـه ، وأذكر ضربة قوية فى بطنى ، واذكر محجوبا جاثما على صدرى . واذكر محجوبا ملقى على الارض وانا اركله بقدمى . واذكر صوته يصرخ : « مجنون . مجنون » . واذكر لغطا وصياحا وانا أضغط بيدى على حلق محجوب ، وأسمع قرقرة ، ويدا قوية تجذبنى من رقبتى ، ثم وقعت عصا ثقيلة على رأسى .

(٩)

العالم فجأة انقلب راسا على عقب · الحب ؟ الحب لا يفعل هذا · انه الحقـد . أنا حاقد وطالب ثأر وغريمى فى الداخل ولا بد من مواجهته . ومع ذلك مازال فى عقلى بقية تدرك سخرية الموقف . اننى ابتدىء من حيث انتهى مصطفى سعيد ، الا انه على الاقل قد اختار وأنا لم اختر شيئا . قرص الشمس ظل ساكنا فوق الافق الغربى زمنا لم اختفى على عجل . وجيوش الظلام المعسكرة ابدا غير بعيد وثبت فى لحظة واحتلت الدنيا . لو اننى قلت لها الحقيقة لعلها لم تكن تفعل مافعلت . خسرت الحرب لاننى لم اعلم ولم اختر . ووقفت زمنا طويلا امام باب الحديد . أنا الآن وحدى ، لا مهرب لا ملاذ ، لا ضمان · عالمى كان عريضا فى الخارج ، الآن قد تقلص وارتد على اعقابه حتى صرت العالم أنا ولا عالم غيرى . أين اذن الجذور الضاربة فى القدم ؟ أين ذكريات الموت والحياة ؟ ماذا حدث للقافلة والقبيلة ؟ أين راحت زغاريد عشرات الاعراس وفيضـانات النيل وهبوب الريح صيفا وشتاء من الشمال والجنوب ؟ الحب ؟ الحب لايفعل هذا . انه الحقد . هاأنذا اقف الآن فى دار مصطفى سعيد أمام « باب الحديد » ، باب الغرفة المستطيلة المثلثة السقف الخضراء النوافذ . المفتاح فى جيبى وغريمى فى الداخل على وجهه سعادة شيطانية لاشك ؟ انا الوصى والعاشق والغريم ·

ادرت المفتاح فى الباب فانفتح دون مشقة . استقبلتنى رطوبة من الداخل ورائحة مثل ذكرى قديمة . اننى اعرف هذه الرائحة . رائحة

الصندل والند . وتحسست الطريق بأطراف أصابعي على الحيطان . اصطدمت بزجاج نافذة . فتحت مصاريع الزجاج وفتحت مصاريع الخشب . فتحت نافذة وأخرى وثالثة . ولكن لم يدخل من الخارج سوى مزيد من الظلام . أوقدت ثقابا . وقع الضوء على عيني كوقع الانفجار . وخرج من الظلام وجه عابس زاما شفتيه اعرفه ولكنني لم أعد أذكره . وخطوت نحوه في حقد . انه غريمي ، مصـــطفى سعيد . صار للوجه رقبة ، وللرقبة كتفان وصدر ثم قامة وساقان . ووجدتني اقف أمام نفسي وجها لوجه . هذا ليس مصطفى سعيد . انها صورتي تعبس في وجهي من مرآة . اختفت الصـــورة فجأة وجلست في الظلام زمنا لا أدرى حسابه أرهف السمع ولا أسـمع شيئا . اشعلت ثقابا آخر فابتسمت امرأة ابتسامة مريرة . وجلست في واحة الضوء ونظرت حولي فاذا مصباح قديم على المنضدة أكاد ألمســه بيدي . هززته فاذا فيه زيت . ياللعجب . أوقدت المصباح فتباعدت الظلال وتباعدت الحيطان وارتفع السقف . أوقدت المصباح واغلقت النوافذ . يجب ان تظل الرائحة حبيسة هنا . رائحة الطوب والخشب والند الحريق والصندل . . . والكتب . يا الهي . الحيطان الاربعة من الارض حتي السقف . رفوف رفوف ، كتب كتب كتب . اشعلت سيجارة وملأت رئتي بالرائحة الغريبة . ياله من مغفل . هل هذا فعل انسان اراد أن يبدأ صفحة جديدة ؟ سأقوضها على رأسه . ساحرقها . واشعلت النار في البساط الناعم تحت قدمي ولبثت اراقبها وهي تلتهم ملكا فارسيا على جواد يسدد رمحه نحو غزال يعدو مبتعدا . ورفعت المصباح فاذا ارضية الغرفة كلها مغطاة بابسطة فارسية . ورأيت أن الحائط المقابل للباب ينتهي بفراغ . ذهبت اليه والمصباح في يدي فاذا هو . . . يا للحماقة ، مدفأة . تصوروا ، مدفأة انكليزية بكامل هيئتها وعدتها ، فوقها مظـلة من

النحاس وأمامها مربع مبلط بالرخام الاخضر ورف المدفأة من رخام ازرق وعلى جانبي المدفاة كرسيان فكتوريان مكسوان بقمـاش من الحرير المشجر بينهما منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر . ورايت وجه المرأة التي ابتسمت لي قبل لحظات . لوحة زيتية كبيرة في اطار مذهب على رف المدفاة والتوقيع في الركن الايمن « م. سعيد » . وانتبهت الى النار في وسط الحجرة تكاد تكون حريقـا . خطوت نحوها ثماني عشرة خطوة مددتها وانا أخطو ودستها بحذائى حتى انطفات . انا طالب ثار ولكنني لا استطيع ان اقاوم حب الاستطلاع . سأرى أولا وأسمع ثم أحرقها فكأنها لم تكن . والكتب ... على ضوء المصباح أراها مصنفة مرتبة . كتب الاقتصاد والتاريخ والادب . علم الحيوان . جيولوجيا . رياضـيـات . فلك . دائرة المعارف البريطانية . غبون . ماكولى . طوينبى . اعمال برنارد شو كلها . كينز . تونى . سميث . روبنسن ، اقتصاد المنافسة الغير كاملة . هبسن ، الامبريالية . روبنسن ، مقالة عن الإقتصاد الماركسي . علم الاجتماع . علم الاجناس . علم النفس . طوماس هاردى . طوماس مان . أى جي مور . طوماس مور ، فرجينيا وولف . وتغنشتاين . اينشتاين . برايرلى . نامير . كتب سمعت بها وكتب لم إسـمع بها . دواوين لشعراء لا اعلم بوجودهم . يوميات غردون . رحلات غلفر . كيلنغ . هوسمان . تاريخ الثورة الفرنسـيـة ، طوماس كارلايل . محاضرات عن الثورة الفرنسية ، لورد اكتن . كتب مجلدة بالجلد . كتب فى اغلفة من الورق . كتب قديمة مهلهلة . كتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها . مجلدات ضخمة فى حجم شواهد القبور . كتب صغيرة مذهبة الحوافى فى حجم ورقة الكتشينة . توقيعات . اهداءات . كتب فى صناديق . كتب على الكراسي . كتب على الارض . اية دعابة هذه ؟ ماذا يقصد ؟ اوون . فورد . ستيفان زفايغ . اى

جي براون . لاسكي . هازلت . اليس في ارض العجائب . رتشاردز . القرآن بالانكليزية . الانجيل بالانكليزية . غلبرت مري . افلاطون . اقتصاد الاستعمار ، مصطفى سعيد . الاستعمار والاحتكار ، مصطفى سعيد . الصليب والبارود ، مصطفى سعيد . اغتصاب افريقيا ، مصطفى سعيد . بروسبرو وكاليبان . الطوطم والتابو . داولي . لايوجد كتاب عربي واحد . مقبرة . ضريح . فكرة مجنونة . سجن . نكتة كبيرة . كنز . افتح ياسمسم ودعنا نفرق الجواهر على الناس . السقف من خشب البلوط وفي الوسط قوس يفصل الحجرة نصفين ، يسنده عمودان رخاميان لونهما اصفر ضارب الى الحمرة . والقوس عليه قشرة من القيشاني مزركش الحواف . وأنا اتصلت مائدة مستديرة لا أدري من اي خشب هي ولكن سطحها داكن يلمع . وعلى كل من الجانبين خمس كراسي مبطنة بالجلد . والى اليمين كنبة ذات مسند واحد ، مكسوة بمخمل ازرق ، وعليها وسائد من ... لمستها بيدي ، نعم من ريش النعام . ورأيت على يمين المدفأة وعلى يسارها أشياء لم الاحظها من قبل . على اليمين منضدة طويلة عليها شمعدان من الفضة فيه عشر شموع لم تمسها النار قبلا ، وكذلك على اليسار . أوقدتها شمعة شمعة ، فأضاءت اول ما اضاءت اللوحة الزيتية على رف المدفأة . وجه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباها ينعقدان فوقهما . الانف أكبر قليلا مما يجب والفم يميل الى الاتساع . وادركت ان رفوف الكتب الزجاجية في الحائط المقابل للباب لاتصل الى الارض ولكنها تنتهي على جانبي المدفأة بدواليب مدهونة بطلاء أبيض بارزة عن رفوف الكتب مقدار قدمين أو ثلاثة . وكذلك على امتداد الضلع الآخر الى اليسار . وذهبت الى الصور المصفوفة على الرف . مصطفى سعيد يضحك ، مصطفى سعيد يكتب ، مصطفى سعيد يسبح ، مصطفى

سعيد فى مكان ما فى الريف ، مصطفى سعيد فى الزى الجامعى ، مصطفى سعيد يجدف فى السيربنتاين ، مصطفى سعيد فى تمثيلية الميلاد ، على راسه تاج ، أحد الملوك الثلاثة الذين جلبوا العطور والمر للمسيح ، مصطفى سعيد يتوسط رجلا وامرأة ، مصطفى سعيد لم يترك لحظة تمر الا وسجلها للذكرى والتاريخ . وامسكت صورة امرأة وتمعنت فيها ، وقرأت الأهداء بخط منمق : « من شيلا مع كل حبي » . شيلا غرينود بلا شك . قروية من ضواحي هل ، اغراها بالهدايا والكلام المعسول والنظرة التى ترى الشيء فلا تخطئه . دوختها رائحة الصندل المحروق والند . حلوة الوجه فعلا ، تبتسم فى الصورة وفى جيدها عقد ، من العاج بلاشك . ذراعاها مكشوفتان وصدرها بارز . كانت تعمل خادمة فى مطعم بالنهار وبالليل تواصل الدراسة في البوليتكنيك . كانت ذكية تؤمن بان المستقبل للطبقة العاملة ، وانه سيجيء يوم تنعدم فيه الفروق ويصير الناس كلهم اخوة . كانت تقول له : « أمى ستجن وأبى سيقتلنى اذا علما اننى احب رجلا اسود ولكننى لا أبالى » . قال : « كانت تغنى لى أغانى مارى لويد ونحن عراة . كنت اقضى معها أمسيات الخميس فى غرفتها فى كامدن تاون واحيانا تقضى الليل معى فى شقتى . كانت تلحس وجهى بلسانها وتقول لى : لسانك قرمزى بلون الغروب فى المناطق الاستوائية . كنت لا اشبع منها ولا تشبع منى . تتأملنى كل مرة كأنها تكتشف شيئا جديدا . تقول لى : ما أروع لونك الاسود ، لون السحر والغموض والاعمال الفاضحة » . لقد انتحرت .. لماذا انتحرت شيلا غرينود يامستر مصطفى سعيد ؟ انا أعلم انك تختبيء فى مكان ما من هذه المقبرة الفرعونية التى ساحرقها على راسك . لماذا قتلت حسنه بنت محمود ود الريس الشيخ وقتلت نفسها فى هذه القرية التي لا يقتل أحد فيها أحدا ؟

والتقطت صورة أخرى وقرأت الاهداء بخط عريض يميل الى الامام : « لك حتى الممات ــ ايزابيلا » . مسكينة ايزابيلا سيمور . اننى أحس بعطف خاص نحو ايزابيلا سيمور . مستديرة الوجه ، تميل الى البدانة تلبس رداء قصيرا بمقاييس ذلك الوقت . ليست تماما تمثالا من البرونز كما وصفها ولكن فى الوجه طيبة واضحة وتفاؤلا بالحياة . تبتسم . هى أيضا تبتسم . قال انها كانت زوجة لجراح ناجح ، أما لبنتين وابن . قضت أحد عشر عاما فى حياة زوجية سعيدة ، تذهب للكنيسة صباح كل أحد بانتظام ، وتساهم

فى جمعيات البر . ثم قابلته واكتشفت فى أعماقها مناطق مظلمة كانت مغلقة من قبل . وبالرغم من كل شيء تركت له رسالة تقول فيها : « اذا كان فى السماء اله ، فانا متأكدة أنه سينظر بعين العطف الى طيش امرأة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول قلبها ، ولو كان فى ذلك اخلال بالعرف وجرح لكبرياء زوج . ليسامحنى الله ويمنحك من السعادة مثل مامنحتنى » . اننى أسمع صوته فى تلك الليلة ، داكنا ، يعلو ويخفت ، ليس فيه حزن ولا ندم ، ان كان فى الصوت شيء فقد كانت فيه رنة فرح . « وسمعتها تقول لى بصوت متضرع مستسلم : أحبك. فجاوب صوتها هتاف ضعيف فى أعماق وعيى يدعونى أن اقف . لكن القمة صارت على بعد خطوة ، وبعد ذلك التقط انفاسى واستجم . ونحن فى قمة الالم عبرت براسى سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة مالحة وسط الصحراء . حين خطا زوجها الى منصة الشهادة فى المحكمة ، تعلقت به الابصار . كان رجلا نبيل الملامح والخطو ، راسه الاشيب يكلله الوقار ، وتجلس على سمته مهابة لا مراء فيها . كان رجلا لو وضعت معه على ميزان ، فان كفته ترجح كفتى اضعاف اضعاف . وكان شاهد دفاع لا اتهام . قال فى الصمت الذى خيم على المحكمة : الانصاف يحتم على أن أقول ان ايزابيلا زوجتى كانت تعلم بانها مريضة بالسرطان . كانت فى الآونة الاخيرة ، قبل موتها ، تعانى من حالات انقباض حادة . قبل موتها بأيام اعترفت لى بعلاقتها بالمتهم . قالت انها احبته وانه لا حيلة لها . كانت طول حياتها معى مثال الزوجة الوفية المخلصة . وأنا بالرغم من كل شيء لا أحس بأى مرارة فى نفسى ، لا نحوها ولا نحو المتهم . اننى فقط أحس بحزن عميق لفقدها » .

لايوجد عدل فى الدنيا ولا اعتدال . وانا احس بالمرارة والحقد ، فبعد هؤلاء الضحايا جميعا ، توج حياته بضحية أخرى ، حسنه بنت محمود ، المرأة الوحيدة التى أحبيتها ، قتلت ود الريس المسكين وقتلت نفسها من أجل مصطفى سعيد . وقطعت ... يا للبشاعة . والتقطت صورة فى أطار من الجلد . هذه آن همند بلاشك ، بالرغم من انها تلبس عباءة عربية وعقالا ، والاهداء أسفل الصورة بخط عربى مهتز : « من جاريتك سوسن » . وجه حى يتفجر صحة لاتكاد الصورة تحتويه . فى كل خد غمازتان ، والشفتان ممتلئتان منفرجتان ، والعينان تتوقدان بحب الاستطلاع . واضح كل هذا فى الصورة على تقادم العهد بها . « كانت عكسى تحن الى مناخات استوائية ،

وشموس قاسية ، وآفاق ارجوانية . كنت في عينيها رمزا لكل هذا الحنين . وأنا جنوب يحن الى الشمال والصقيع . كانت تملك شقة في هامستد تطل على هامستد هيث تجيئها من اكسفورد آخر الاسبوع . كنا نقضي ليلة السبت عندي وليلة الاحد عندها . واحيانا تمكث الاثنين واحيانا الاسبوع كله . ثم أخذت تتغيب عن الجامعة شهرا وشهرين حتى فصلت . كانت تدفن وجهها تحت ابطي وتستنشقني كأنها تستنشق دخانا مخدرا . وجهها يتقلص باللذة . تقول كأنها تردد طقوسا في معبد : « أحب عرقك . أريد رائحتك كاملة . رائحة الاوراق المتعفنة في غابات افريقيا . رائحة المنجة والباباى والتوابل الاستوائية . رائحة الامطار في صحاري بلاد العرب » . كانت صيدا سهلا . قابلتها اثر محاضرة القيتها في اكسفورد عن ابي نواس . قلت لهم ان عمر الخيام لايساوي شيئا الى جانب ابي نواس ، وقرأت لهم من شعر أبي نواس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ، زاعما لهم ان تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقى بها في العصر العباسي . وقلت في المحاضرة ان ابا نواس كان متصوفا ، وانه جعل من الخمر رمزا حمله جميع أشواقه الروحية ، وان توقه الى الخمر في شعره كان في الواقع توقا الى الفناء في ذات الله ... كلام ملفق لا أساس له من الصحة ، لكنني كنت ملهما في تلك الليلة ، احس بالاكاذيب تتدفق على لساني كأنها معان سامية . وكنت احس بالنشوة تسري مني الى الجمهور ، فامضي في الكذب . وبعد المحاضرة التفوا حولي . موظفون عملوا في الشرق ، ونساء طاعنات في السن مات أزواجهن في مصر والعراق والسودان ، ورجال حاربوا مع كتشنر واللنبي ، ومستشرقون ، وموظفون في وزارة المستعمرات ، وموظفون في قسم الشرق الاوسط في وزارة الخارجية . وفجأة رأيت فتاة في الثامنة أو التاسعة عشرة تثب نحوي وثبا مخترقة الصفوف . وطوقتني بذراعيها وقبلتني وقالت باللغة العربية : انت جميل تجل عن الوصف . وأنا أحبك حبا يجل عن الوصف . قلت لها بعاطفة أخافتني حدتها : وأخيرا وجدتك ياسوسن . انني بحثت عنك في كل مكان ، وخفت الا أجدك أبدا . هل تذكرين ؟ قالت بعاطفة لاتقل عن عاطفتي حدة : كيف أنسى دارنا في الكرخ في بغداد على ضفة نهر دجلة أيام المأمون ؟ انا أيضا تقفيت اثرك عبر القرون ولكنني كنت واثقة اننا سنلتقي . وهانتذا يا حبيبي مصطفى ، لم تتغير منذ افترقنا · كأنني وهي

على مسرح وحولنا ممثلون يؤدون أدوارا صغيرة . أنا بطل وهي بطلة . اطفئت الانوار وساد الظلام حولنا وبقينا أنا وهي وحدنا وسط المسرح ينصب علينا ضوء وحيد . ورغم ادراكي انني اكذب ، لقد كنت احس انني بطريقة ما اعني ما أقول ، وانها هي أيضا رغم كذبها فان ماقالته هو الحقيقة . كانت تلك لحظة من لحظات النشوة النادرة التي ابيع بها عمري كله . لحظة تتحول فيها الاكاذيب امام عينك الى حقائق ، ويصير التساريخ قوادا ، ويتحول المهرج الى سلطان . وفي غمرة الحلم ذاك حملتني بسيارتها الى لندن . كانت تسوق بسرعة رهيبة ، وبين الحين والحين تترك عجلة القيادة وتطوقني بذراعيها وتصرخ : ما اسعدني اذ وجدتك أخيرا . انني سعيدة سعادة لو مت في هذه اللحظة فانني لن أبالي . وكنا نقف على الحانات في الطريق ، ونشرب خمر التفاح احيانا والبيرة أحيانا ، والنبيذ الاحمر والنبيذ الابيض ، وأحيانا نشرب الوسكي . ومع كل كأس أقرأ لها من شعر أبي نواس . قرأت لها :

اما يسرك ان الارض زهراء
والخمر ممكنة شمطاء عذراء
ما في قعودك عذر عن معتقة
كالليل والدها والام خضراء
بادر فان جنان الكرخ مونقة
لم تلتقفها يد للحرب عسراء

وقرأت لها :

وكأس كمصباح السماء شربتها
على قبلة أو موعد للقاء
اتت دونها الايام حتي كأنها
تساقط نور من فتوق سماء

وقرأت لها :

اذا عبأ أبو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموت أمام الشيخ اهلانا
وشبت حربها واشتعلت تلهب نيرانا
جعلنا القوس أيدينا ونبل القوس سوسانا
فعادت حربنا انسا وعدنا نحن خلانا
اذا ماضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا
لفتيان يرون القتل في اللذة قربانا

ومنشا حربنا ساق صبا خمرا فسقانا
بحث الكاس كي تلحق اخرانا بأولانا
ترى هناك مصروعا وذا بنجر سكرانا
فهذي الحرب لا حرب تغم الناس عدوانا
بها نقتلهم ثم بها ننشر قتلانا

نحن هكذا وهي تطرب للشعر وتطرب للشراب ، تسقيني لذاذات الاكاذيب العذبة وانسج لها خيوطا دقيقة مريعة من الاوهام . تقول لي أنها ترى في عيني لمح السراب في الصحارى الحـارة ، وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات ، واقول لها انني أرى في زرقة عينيها بحور الشمال البعيدة التي ليس لها سواحل . وفي لندن ادخلتها بيتي ، وكر الاكاذيب الفادحة ، التي بنيتها عن عمد ، اكذوبة اكذوبة . الصندل والند وريش النعام وتماثيل العاج والابنوس والصور والرسوم لغابات النخل على شطآن النيل ، وقوارب على صفحة الماء أشرعتها كأجنحة الحمام ، وشموس تغرب على جبـال البحر الاحمر ، وقوافل من الجمال تخب السير على كثبان الرمل على حدود اليمن ، أشجار التبلدي في كردفان ، وفتيات عاريات من قبائل الزاندي والنوير والشلك ، حقول الموز والبن في خط الاستواء ، والمعابد القديمة في منطقة النوبة ، الكتب العربية المزخرفة الاغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق ، السجاجيد العجمية والستائر الوردية ، والمرايا الكبيرة على الجدران ، والاضواء الملونة في الاركان . ركعت وقبلت قدمي وقالت : انت مصطفى مولاي وسيدي وانا سوسن جاريتك . هكذا كل واحد منا اختار دوره في صمت ، هي تمثل دور الجارية وانا امثل دور السيد . حضرت الحمام ثم غسلتني بالماء الذي صبت فيه ماء الورد . أوقدت عيدان الند ، وأوقدت الصندل في مجمر النحاس المغربي المعلق في المدخل . لبست عباءة وعقـالا وتمددت انا على السرير فجاءت ودلكت صدري وسـاقي ورقبتي وكتفي . قلت لها بصوت آمر : تعالي ، فأجابتني بصوت خفيض : سمعا وطاعة يامولاي . في غمرة الوهم والسكر والجنون أخذتها فقبلت لان الذي كان قد كان بيننا منذ الف عام . وجدوها في شقتها في هامستد ميتة انتحارا بالغاز ورسالة تقول فيها : مستر سعيد لعنة الله عليك »

وضعت صورة آن همند في مكانها الى يسار صورة مصطفى سعيد وهو يقف بين مسز روبنسن وزوجها . الاهداء في أسفل الصورة :

« الى موزى العزيز ـ القاهرة ١٩١٣/٤/١٧ » . يبدو انها كانت تدلله بهذا الاسم ، فهى فى رسالتها أيضا تشير اليه باسم «موزى» . مصطفى سعيد يبدو مجرد طفل ، ولكن وجهه عابس فى الصورة . مسز روبنسن تقف الى يساره وتضع ذراعها حول كتفه وزوجها يطوقهما الاثنين بذراعه وهو وزوجته يبتسمان ابتسامة طبيعية سعيدة . وجهاهما وجها شابين لم يصلا الثلاثين . رغم كل شىء فان حب مسز روبنسن له لم يتزعزع . انها حضرت المحاكمة من أولها الى آخرها ، وسمعت كل شىء ، ومع ذلك فانها تقول فى رسالتها الى : « لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى امتنانى لانك كتبت لى عن موزى العزيز . لقد كان موزى أعز شخص بالنسبة لى ولزوجى . مسكين موزى . انه كان طفلا معذبا . ولكنه ادخل على قلبى وقلب زوجى سعادة لا حد لها . بعد تلك المسألة المؤلمة وتركه لندن ، انقطعت أخباره عنى ، وقد حاولت جهدى أن أعيد الاتصال به ولكننى لم أفلح . مسكين موزى . ولكن مايخفف عنى قليلا ألم فقده ان اعلم انه قضى السنوات الاخيرة من حياته سعيدا بينكم وانه تزوج زوجة طيبة وأنجب ولدين . بلغ حبى لمسز سعيد . انها تستطيع أن تعتبرنى أما . واذا كان ثمة عمل استطيع أن أؤديه لها وللطفلين العزيزين فقل لها : لا تتردد فى الكتابة الى . وكم أكون سعيدة لو أنهم جميعا جاءوا وقضوا معى عطلة الصيف القادم . اننى أعيش هنا وحيدة فى آيل اف وايت . وقد سافرت الى القاهرة فى يناير الماضى وزرت قبر زوجى . كان ركى يحب القاهرة حبا عظيما وقد شاء القدر أن يدفن فى المدينة التى أحبها اكثر من أى مدينة أخرى فى العالم .

« اننى أشغل نفسى بتأليف كتاب عن حياتنا ـ ركى وموزى وأنا ـ كانا رجلين عظيمين ، كل بطريقته . كانت عظمة ركى فى قدرته على جلب السعادة للآخرين . كان سعيدا بمعنى الكلمة ، تفيض السعادة منه الى كل من يتصل به . وكان لموزى عقل عبقرى ، ولكنه كان متهورا . كان غير قادر على تقبل السعادة او اعطائها ، الا لمن أحبهم واحبوه حبا حقيقيا مثلى ومثل ركى . وانا احس ان الحب والواجب يحتم على أن أعرف الناس بقصة هذين الرجلين العظيمين . سيكون الكتاب فى الواقع عن ركى وموزى ، فانا لم أفعل شيئا يستحق الذكر . سأكتب عن الخدمات الجليلة التى أداها ركى للثقافة العربية ، مثل اكتشافه لكثير من المخطوطات النادرة وشرحها

والاشراف على طبعها . وسأكتب عن الدور العظيم الذى لعبه موزى فى لفت الانظار هنا الى البؤس الذى يعيش فيه أبناء قومه تحت وصايتنا كمستعمرين . وسأكتب بالتفصيل عن المحاكمة وازيل ماعلق باسمه من غبار . انني أكون شاكرة اذا ارسلت لى اى شيء خلفه موزى قد يعينني على كتابة هذا الكتـــاب . ولعل موزى أخبرك انه جعلني وصية على شئونه فى لندن . وقد تجمع شيء من المال من حقوق الطبع لبعض كتبه وترجمة بعضها سأحولها فورا حين تخبرنى بعنوان البنك الذى تريدنى أن أحولها له . وبهذه المناسبة اسمح لى أن أشكرك شكرا عظيما على الاشراف على عائلة موزى العزيز . ارجو أن تراسلنى بانتظام وتكتب لى عن أخبارهم بالتفصيل وأن ترسل لى صورتهم فى رسالتك القادمة .

« مخلصتك اليزابيث »

وضعت الرسالة فى جيبى وجلست على الكرسى الى يمين المدفأة . وقع بصرى على عدد من صــــحيفة « التايمز » بتاريخ الاثنين ١٩٢٧/٩/٢٦ . المواليد ، الزيجات ، الوفيات . وقع مراســيم الزواج القسيس سامسن ماجســتير فى الاداب . تقام مراسيم الجنازة فى كنيسة ستتنى الساعة الثانية بعد الظهر ، الاربعاء . الرسائل الشخصية . أيتها المحبوبة دائما ، الى متى نظل مفترقين ؟ – القلب العزيز . مستعمرة كينيا – مستر ... مساح قانونى – يعود الى نيروبى فى الخامس من أكتوبر ، حتى ذلك التاريخ اية مراســـلات تتعلق بتقارير عن عقارات فى المستعمرة ، يجب أن ترسل بواسطة ... اعلانات عن دروس فى ركوب الخيل . قطط سيامية زرقاء للبيع . فتاة (١٧ سنة) مهذبة ، من عائلة محترمة ، تبحث عن عمل . سيدة ورثت لقب ليدى (٣٠ ســنة) ترغب فى وظيفة فى الخارج . أخبار الرياضة . وست هل يهزم بيرهل . وست هام يفوز . جين تنى يغلب جاك دمبسى . رسالة من ظفر الله خان يفند فيها آراء سير شمانلال ستالفاد بشأن النزاع بين المسلمين والهندوك فى البنجاب . رسالة تقول : « الجاز موسيقى مرحة فى عالم مظلم » . فيلان وصلا من رانغون أمس ، وسارا على الاقدام من مرسى تلبرى الى حديقة الحيوان . مربى أبقار هجم عليه ثور فى مزرعته وبقر بطنه . رجل سرق اربع موزات حكم عليه بالسجن ثلاث ســنوات . الاخبار الامبراطورية والخارجية . عرض جديد من موسكو لتسديد الدين الروسى لفرنسا . فيضانات فى سويسرا . الدسكفرى سفينة

كابتن سكت عادت من البحار الجنوبية . هر سترسمان القى خطابا عن نزع السلاح في جنيف يوم السبت . وايضا أدلى هر سترسمان بتصريح لصحيفة « ماتان » أيد فيه خطاب الرئيس فون هند نبرغ في تانبرج الذى رفض فيه أن ألمانيا مسئولة عن لشوب الحرب . المقالة الافتتاحية عن معاهدة جدة التي وقعها سير غلبرت كليتن بالنيابة عن بريطانيا العظمى والامير فيصل عبد العزيز آل سعود نيابة عن أبيه ملك الحجاز ونجد ومحمياتهما . الحالة الجوية في انكلترا وويلز ، الرياح في الغالب بين الغربي والشمال الغربي ، قوية أحيانا في الاماكن المكشوفة ، فترات طويلة من الهدوء ولكن مع فترات من العواصف الممطرة واحيانا أمطار محلية .

انها الصحيفة الوحيدة فيما يبدو . هل وجودها هنا له أي مدلول ؟ أم انها محض الصدفة ؟ وفتحت كراسة وقرأت على الصفحة الاولى : « قصة حياتي ــ بقلم مصطفى سعيد » . وفي الصفحة التالية الاهداء : « الى الذين يرون بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ويرون الاشياء اما سوداء أو بيضاء ، اما شرقية او غربية » . وقلبت بقية الصفحات فلم أجد شيئا ، ولا سطرا واحدا ولا كلمة واحدة . هل هذا ايضا له مدلول أم أنه صدفة محضة ؟ وفتحت ملفا فوجدت أوراقا كثيرة وسكتشات ورسومات . كان اذن يعالج الرسم والكتابة . الرسوم جيدة تنم عن موهبة . رسوم بالالوان لمناظر في الريف الانكليزي تتكرر فيها اشجار البلوط والغدران والاوز . وسكتشات بالقلم الرصاص لمناظر واشخاص من قريتنا . بالرغم من كل شيء لايسعني الا أن أعترف بمهارته الفائقة . بكري ومحجوب وجدي وود الريس وحسنه وعمي عبد الكريم وغيرهم . وجوههم تطالعني بتعبيرات عميقة طالما أحسستها ولكنني لم أكن قادرا على تحديدها . وقد رسمهم مصطفى سعيد بوضوح رؤية وبعطف يقرب من الحب . ووجه ود الريس يتردد أكثر من الباقين . ثمانية رسوم لود الريس في تعابير مختلفة . لماذا اهتم بود الريس كل هذا الاهتمام ؟

ونظرت في قصاصات الورق وقرأت : « نعلم الناس لتفتح أذهانهم ونطلق طاقاتهم المحبوسة . ولكننا لانستطيع ان نتنبأ بالنتيجة ــ الحرية . نحرر العقول من الخرافات . نعطى الشعب مفاتيح المستقبل ليتصرف فيه كما يشاء » . « تركت لندن وقد بدأت أوروبا تحشد جيوشها مرة أخرى لعنف أكثر ضراوة » . « لم تكن

كراهية . كان حبا عجز أن يعبر عن نفسه . احببتها بطريقة معوجة . وهي أيضا » . « اسقف البيوت بللها رذاذ المطر . البقر والضأن فى الحقول وكأنها حصوات بيضاء وسوداء . البلل الخفيف فى شهر يونيو .. أسمحى لى ياسيدتى . هذه الرحلات بالقطار مملة . كيف حالك ؟ من برمنغهام . الى لندن . كيف تصف المناظر ؟ شجر وحشائش . اكوام القش اليابس وسط الحقول . الاشجار والحشائش هى هى فى كل مكان . كتاب لنفايو مارش . ترددت . لم تقل لا او نعم » . هل كان يصف حوادث حقيقية أم انه كان يعالج قصة ؟ « انني يامولاى يجب أن أعترض على لجوء الاتهام الى حيلة منطقية مكشوفة . ذلك انه يريد ان يؤكد مسئولية المتهم فى حوادث لم يكن مسئولا عنها ، بناء على عمل حدث فعلا ، ثم يعود ويؤكد افتراضه فيما حدث فعلا بناء على الافتراضات السابقة . ان المتهم معترف بأنه قتل زوجته ولكن هذا لايجعله مسئولا عن جميع حوادث انتحار النساء اللاتى انتحرن فى الجزر البريطانية فى خلال السنوات العشر الاخيرة » . « من ولد الخير ولد له فراخاً تطير بالسرور . ومن ولد الشر أنبت له شجرا أشواكه الحسرة وثمرة الندم . فرحم الله امرءا اغضى عن الاخطاء واستمتع بالظاهر » .

ووجدت قصيدة بخط يده . اذن كان يعالج الشعر أيضا ، وواضح من كثرة ماشطب فيها وبدل وغير فى كلماتها انه هو الآخر كان يحس برهبة أمام الفن . ها هي ذى :

عربدت فى الصدر آهات الحزين
ودموع القلب فاضت من تباريح السنين
ورياح عصفت بالحب والحقد الدفين
وبقايا صلوات ضمها الصمت العميق

هينمات ودعاء ونواح وزعيق
وغبار ودخان غم للسارى الطريق
ونفوس مطمئنات وأخرى هلعة
وجباه صاغرات وأخرى ...

ولابد أن مصطفى سعيد قضى ساعات طويلة يبحث عن الكلمة التى يستقيم بها الوزن . استهوتنى المعضلة ففكرت بضع دقائق . ولم يطل تفكيرى . انها قصيدة ركيكة على أى حال . قائمة على الطباق والمقارنات . ليس فيها احساس صادق ولا انفعال حقيقى . وهذا

البيت ليس أسوأ من بقية الابيات • شطبت البيت الاخير وكتبت محله :

« وخدود صافرات وجباه خاشعة »

ومضيت فى تقليب الاوراق فوجدت أرقاما وقصاصات ورق فيها عبارات مثل : « ثلاثة براميل زيت » ، « تناقش اللجنة موضوع تقوية قاعدة المكنة » ، « فائض الاسمنت يمكن بيعه فورا » . ثم وجدت هذه الفقرة : « وقد كان حتما ان يصطدم طالعى بطالعها وان أقضى فى السجن أعواما وأضرب فى الارض أعواما ، أطارد خيالها ويطاردنى • وذلك هو الاحساس بأننى فى لحظة خارج حدود الزمن قد ضاجعت الهة الموت واطللت من كوة عينيها على الجحيم . انه شعور لا يمكن لانسان أن يتصوره . وقد ظل مذاق تلك الليلة فى فمى يمنعنى من أى مذاق سواه » •

سئمت قراءة الاوراق . لا شك أن ثمة أوراقا كثيرة أخرى دفينة فى هذه الغرفة ، كأجزاء فى لغز حسابى ، يريد مصطفى سعيد منى أن أكتشفها وأضعها جنبا الى جنب ، وأخرج منها صورة متكاملة تكون فى صالحه . انه يريد أن يكتشف كأثر تاريخى له قيمة . لاشك فى ذلك . وانا اعلم الآن انه اختارنى أنا لهذا الدور . لم تكن صدفة انه أثار حب الاستطلاع عندى ، ثم قص على قصة حياته غير كاملة لكى اكتشف انا بقية القصة . لم تكن صدفة أنه ترك لى رسالة مختومة بالشمع الاحمر ، امعانا منه فى شحذ خيالى ، وانه جعلنى وصيا على ولديه ليلزمنى الزاما لا فكاك منه ، وانه ترك لى مفتاح متحف الشمع هذا . لا حد لانانيته وغروره ، فهو رغم كل شىء يريد أن يخلده التاريخ . انما أنا لا أملك متسعا من الوقت للمضى فى هذه المهزلة . يجب أن انهى هذه المهزلة قبل طلوع الفجر ، والساعة الآن جاوزت الثانية صباحا . عند طلوع الفجر ستأكل ألسنة النار كل هذه الاكاذيب .

هببت واقفا ، ورفعت ضوء الشموع على اللوحة الزيتية على رف المدفأة • كل شىء فى الغرفة منظم مرتب موضوع فى مكانه • الا صورة جين مورس . كأنه لم يدر ماذا يفعل بها . كل النساء الاخريات احتفظ بصورهن الفوتوغرافية ، ولكن جين مورس هذه كما رآها هو لا كما رأتها آلة التصوير . نظرت الى اللوحة باعجاب . وجه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباها ينعقدان فوقهما . الانف يميل الى الكبر والفم يميل الى الاتساع . والتعبير على الوجه

شيء يصعب وصفه فى كلمات . تعبير رهيب ، محير . الشفتان الرقيقتان مطبقتان كأنها تعض أسنانها والفك مائل الى الامام بكبرياء . هل التعبير فى العينين غضب أم ابتسام ؟ وثمة شيء شهواني يرف على الوجه كله . هذه اذن هى العنقاء التي افترسته الغول ؟ كان صوته فى تلك الليلة جريحا حزينا نادما . ألأنه فقدها ؟ أم لأنها جرعته المهانات ؟

« كنت أجدها فى كل حفل أذهب اليه ، كأنها تتعمد أن تكون حيث أكون لتهينني . أردت ان أراقصها فقالت لى : لا أرقص معك ولو كنت الرجل الوحيد فى العالم . صفعتها على خدها فركلتني بساقها وعضتني فى ذراعي بأسنان كأنها أسنان لبوة . لم تكن تعمل عملا ولا أعلم كيف كانت تعيش . أهلها من ليدز ، لم أقابلهم حتى بعد زواجي بها . كان أبوها تاجرا لا أدرى فى أية بضاعة ، وكان لها ، حسب قولها ، خمسة أخوة وكانت هى البنت الوحيدة . كانت تكذب حتى فى أبسط الاشياء . تعود الى البيت بقصص غريبة عن أشياء حدثت لها وأناس قابلتهم لا يمكن أن يصدقها العقل . ولا أستبعد أنها كانت عديمة الأهل ، كأنها شهرزاد متسولة. ولكنها كانت مفرطة فى الذكاء ومفرطة فى الظرف حين تشاء ، يحيط بها حيث تكون لفيف من المعجبين يرفون حولها كالذباب . وكنت أحس احساسا داخليا أنها رغم تظاهرها بكراهيتي ، كانت مهتمة بأمرى ، حين يجمعني واياها مجلس تراقبني بطرف عينها ، وتحصى جميع حركاتي وسكناتي ، واذا رأت مني اهتماما بفتاة ما سارعت الى اساءتها والقسوة عليها . كانت ماجنة بالقول والفعل ، لا تتورع عن فعل أى شيء ، تسرق وتكذب وتغش ، ولكنني رغم ارادتي أحببتها ولم أعد أستطيع أن أسيطر على مجرى الاحداث . كانت حين أتجنبها تغريني وحين أطاردها تهرب مني . كبحت مرة جماح نفسي وتجنبتها أسبوعين . أخذت ابتعد عن الاماكن التى ترتادها واذا دعيت الى حفل أتأكد أنها لن تكون موجودة فيه . ولكنها وجدت طريقها الى بيتي فجاءتني آخر ليلة سبت وآن همند معي . شتمت آن همند شتائم مقذعة فانتهرتها وضربتها فلم ترتدع . خرجت آن همند باكية وظلت واقفة أمامي كشيطان رجيم ، فى عينيها تحد ونداء أثار أشواقا بعيدة فى قلبي . لم أكلمها ولم تكلمني ولكنها خلعت ثيابها ووقفت أمامي عارية . نيران الجحيم كلها تأججت فى صدرى . كان لابد من اطفاء النار فى جبل الثلج المعترض طريقي . تقدمت نحوها

مرتعش الاوصال ، فاشارت الى زهرية ثمينة من الموجودة على الرف. قالت : تعطيني هذه وتأخذني . لو طلبت مني حياتي في تلك اللحظة ثمنا لقايضتها اياها . أشرت برأسي موافقا . أخذت الزهرية وهشمتها على الارض وأخذت تدوس الشظايا بقدميها حتى حولتها الى فتات. اشارت الى مخطوط عربي نادر على المنضدة . قالت : تعطيني هذا أيضا . حلقي جاف . أنا ظمآن يكاد يقتلني الظمأ . لابد من جرعة ماء مثلجة . أشرت برأسي موافقا . أخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها . كأنها مضغت كبدي ، ولكنني لا أبالي . أشارت الى مصلاة من حرير أصفهان أهدتني اياها مسز روبنسن عند رحيلي من القاهرة . أثمن شيء عندي وأعز هدية على قلبي . قالت : تعطيني هذه أيضا ثم تأخذني. ترددت برهة ، ولكنني نظرت اليها منتصبة متحفزة أمامي ، عيناها تلمعان ببريق الخطر وشفتاها مثل فاكهة محرمة لا بد من أكلها . وهززت رأسي موافقا ، فأخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ووقفت تنظر متلذذة الى النار تلتهمها فانعكست ألسنة النار على وجهها . هذه المرأة هي طلبتي وسألاحقها حتى الجحيم . مشيت اليها ووضعت ذراعي حول خصرها وملت عليها لاقبلها . وفجأة أحسست بركلة عنيفة بركبتها بين فخذي . ولما أفقت من غيبوبتي وجدتها قد اختفت .

« لبثت أطاردها ثلاثة أعوام ، قوافلي ظمأى والسراب يلمع أمامي في متاهة الشوق . وذات يوم قالت لي : أنت ثور متوحش لا يفتر من الطراد . انني تعبت من مطاردتك لي ومن جريي أمامك . تزوجني . تزوجتها في مكتب التسجيل في فولام . لم يحضر العقد غير صديقة لها وصديق لي . حين قالت بعد المسجل : أنا جين ونفرد موريس أقبل هذا الرجل مصطفى سعيد عثمان زوجي الشرعي في السراء والضراء في الفقر والغنى في الصحة والمرض ـ فجأة أجهشت بالبكاء وأخذت تبكي بحرقة . دهشت أنا لهذه العاطفة منها وكف المسجل عن اجراء المراسيم وقال لها بعطف : هوني عليك . أنا أقدر شعورك. ما هي الا لحظات وينتهي كل شيء . وظلت بعد ذلك تنهنه بالبكاء ، ولما انتهى العقد أجهشت بالبكاء مرة أخرى . وجاء المسجل وربت على كتفها ثم صافحني قائلا : زوجتك تبكي من شدة السعادة . انني رأيت نساء كثيرات يبكين في زواجهن ولكنني لم أر بكاء بهذه الحرقة . يبدو أنها تحبك حبا عظيما . أعتن بها . أنا متأكد ستكونان

سعيدين . وظلت تبكي الى أن خرجنا من مكتب التسجيل . وفجأة انقلب بكاؤها الى ضحك . قالت وهي تقهقه بالضحك : يالهـــا من مهزلة .

« وقضينا بقية اليوم في سكر . لا حفل ولا مدعوين . أنا وهي والخمر . ولمـا ضمنا الفراش ليلا أردتها فادارت لي ظهرها وقالت: ليس الآن . انا متعبة . وظلت شهرين لا تدعني اقربها ، كل ليلة تقول : أنا متعبة . أو تقول : أنا مريضة . لم أعد احتمل اكثر ممـا احتملت . وقفت فوقها ذات ليلة والسكين في يدي . قلت لهـا : سأقتلك . نظرت الى السكين نظرة بدت لي كأن فيها لهفة ، وقالت : هاهو صدري مكشوف امامك . اغرس السكين في صدري . نظرت الى جسمها العاري في متناول يدي ولا أناله . جلست على حافة السرير ونكست رأسي بذلة . وضعت يدها على خدي وقالت بلهجة لم تخل من رقة : أنت يا حلوى لست من طينة الرجـــال الذين يقتلون . احسست بالذلة والوحدة والضياع . وفجأة تذكرت أمي. رأيت وجهها واضحا في مخيلتي وسمعتها تقول لي : انها حياتك وأنت حر فيها . وتذكرت نبأ وفاة أمي حين وصلني قبل تسعة اشهر ، وجدني سكران في أحضـــان امرأة . لا أذكر الان أية امرأة كانت . ولكني تذكرت بوضوح انني لم أشعر بأي حزن ، كأن الامر لا يعنيني في كثير ولا قليل . تذكرت هذا وبكيت من أعماق قلبي . بكيت حتى ظننت انني لن أكف عن البـــكاء أبدا . واحسست بجين تطوقني بذراعيها وتقول كلاما لم أميزه ولكن صوتها وقع على أذني وقعا منفرا اقشعر له بدني . دفعتها عني بعنف وصرخت فيها : أنا أكرهك . أقسم انني سأقتلك يوما ما . وفي غمرة حزني لم يغب عني التعبير في عينيها . تألقت عيناها ونظرت الى نظرة غريبة . هل هي دهشة ؟ هل هي خوف ؟ هل هي رغبة ؟ ثم قالت بصوت فيه منافاة مصطنعة : أنا أيضا أكرهك حتى الموت .

« ولكن لم تكن لي حيلة . كنت صيادا فاصبحت فريسة . وكنت اتعذب وبطريقة لم أفهمها كنت استعذب عذابي . بعد ذلك الحادث بأحد عشر يوما تماما ، أذكرها لانني تجرعت غصصها كما يتجرع الصائم غصص شهر صوم قائظ ، كنا في حديقة رتشـــمند قبيل الغروب . لم تكن الحديقة خالية تماما من النـــاس . كنا نسمع الاصوات ونرى أشخاصا يتحركون في ضوء الشفق . لم نتحدث الا قليلا ولم نتبادل عبارات حب ولا غزل . دون سبب وضعت

ذراعيها حول عنقي وقبلتني قبلة طويلة . احسست بصدرها يضغط على صدري . وضعت ذراعي حول خصرها وجذبتها الى فتاوهت آهات مزقت نياط قلبي وانستني كل شيء . لم اعد اذكر شيئا . لم اعد ارى او اعي الا هذه المصيبة الفادحة التي رماني بها القدر . هذه المراة هي قدري وفيها هلاكي ، ولكن الدنيا كلها لا تساوي عندي حبة خردل في سبيلها . انا الغازي الذي جاء من الجنوب ، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن اعود منه ناجيا . انا الملاح القرصان وجين مورس هي ساحل الهلاك . ولكنني لا ابالي . اخذتها هنالك في العراء ، لايهمني ان كان ذلك على مرأى ومسمع من الناس . هذه اللحظة من النشوة تساوي عندي العمر كله .

« وقد كانت لحظات النشوة نادرة بالفعل ، وبقية الوقت نقضيه في حرب ضروس لا هوادة فيها ولا رحمة . كانت الحرب تنتهي بهزيمتي دائما . اصفعها فتصفعني وتنشب اظافرها في وجهي وتتفجر في كيانها بركان من العنف فتكسر كل ما تناله يدها من أوان وتمزق الكتب والاوراق . كان هذا اخطر سلاح عندها . كل معركة تنتهي بتمزيق كتاب مهم او حرق بحث اضعت فيه اسابيع كاملة . واحيانا يستبد بي الغضب حتى ابلغ حافة الجنون والقتل ، فاشدد قبضتي على عنقها فتسكن فجأة وتنظر الى تلك النظرة المبهمة ، الخليط من الدهشة والخوف والرغبة . لو انني ضغطت قيد انملة اكثر مما ضغطت لوضعت حدا للحرب . وكانت الحرب تنتقل معنا الى الخارج . ونحن في حانة صرخت فجأة : ابن العاهرة يغازلني . وثبت على الرجل واخذت بخناقه واخذ بخناقي واجتمع علينا الناس ، وفجأة سمعتها تقهقه بالضحك وراء ظهري . وقال لي احد الرجال الذين جاءوا يفصلون بيننا : يؤسفني ان اقول لك أن هذه المراة اذا كانت زوجتك فانك متزوج من مومس . هذا الرجل لم يكلمها بكلمة . يبدو ان هذه المراة تحب منظر العنف . وتحول غضبي اليها ، فذهبت اليها وهي ما تزال تقهقه فصفعتها فانشبت اظافرها في وجهي . ولم استطع جرجرتها الى البيت الا بعد مجهود والمعظيمين

« وكان يحلو لها ان تغازل كل من هب ودب حين نخرج معا . كانت تغازل غرسونات المطاعم وسواقي الباصات وعابري السبيل . وكان بعضهم يتشجع ويستجيب ويرد بعضهم بعبارات بذيئة فاتشاجر مع الناس واضربها وتضربني في عرض الطريق . وما اكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني بها . لماذا لا اتركها وانجو بنفسي ؟ ولكنني

كنت أعلم ان لا حيلة لى وان لا مفر من وقوع المأساة • وكنت أعلم أنها تخونني . كان البيت كله يفوح بريح الخيانة . وجدت مرة منديل رجل ، لم يكن منديلى . سألتها فقالت : انه منديلك . قلت لها : هذا المنديل ليس منديلى • قالت : هبه ليس منديلك • ماذا أنت فاعل ؟ ومرة وجدت علبة سجائر ومرة وجدت قلم حبر . قلت لها : أنت تخونينني . قالت : افرض انني اخونك . صرخت فيها : أقسم انني ساقتلك . ابتسمت ساخرة وقالت : انت فقط تقول هذا . ما الذى يمنعك من قتلى ؟ ماذا تنتظر ؟ لعلك تنتظر حتى تجد رجلا فوقى •• وحتى حينئذ لا أظنك تفعل شيئا • ستجلس على السرير وتبكى

« ذات مساء داكن فى شهر فبراير • درجة الحرارة عشر درجات تحت الصفر . المساء مثل الصباح مثل الليل داكن مكفهر ، لم تشرق الشمس طيلة اثنين وعشرين يوما • المدينة كلها حقل جليد ، الجليد فى الشوارع فى الحدائق عند مداخل البيوت • الماء تجمد فى الانابيب والنفس يخرج بخارا من الافواه • الاشجار عالية تنوء اغصانها تحت وطأة الثلج • وانا دمى يغلى وفى رأسى حمى • فى ليلة مثل هذه تحدث الاعمال الجسيمة • هذه ليلة الحساب • مشيت من المحطة الى الدار احمل المعطف على ساعدى ، جسمى ساخن والعرق يتصبب من جبهتى • كان الجليد يقرقع تحت حذائى وانا اطلب البرد • اين البرد ؟ وجدتها عارية مستلقية على السرير ، فخذاها بيضاوان مفتوحتان ، ابتسامتها مفعمة وعلى وجهها شيء مثل الحزن ، فى حالة تاهب عظيم للاخذ والعطاء . حن قلبى اليها أول ما رأيتها ، واحسست بالدفء الشيطانى تحت الحجاب الحاجز • حين احسه اعلم انني مسيطر على زمام الموقف • اين كان هذا الدفء كل هذه الاعوام ؟ قلت لها بصوت واثق كدت انساه من طول ما فقدته : هل كان معك أحد ؟ أجابتني بصوت أثر فيه وقع صوتى : لم يكن معى احد • هذه الليلة لك انت وحدك • انا انتظرك منذ وقت طويل •

« احسست انها تصدقنى لاول مرة • هذه الليلة ليلة الصدق والمأساة • اخرجت السكين من غمده • جلست على حافة السرير وقتا انظر اليها • كنت ارى وقع نظراتها حيا ملموسا على وجهها • نظرت فى عينيها فنظرت فى عينى وتماسكت نظراتنا واشتبكت ، فكأننا فلكان فى السماء اشتبكا فى ساعة نحس • وطفت نظراتى عليها فحولت وجهها عنى ، ولكن الاثر ظهر فى وسطها فزحزحته يمنة ويسرة ورفعته قليلا عن السرير ثم استقرت به ورمت ذراعيها فى

تراخ . وعادت تنظر الى . نظرت الى صدرها ، فنظرت هي ايضا الى حيث وقع بصرى على صدرها كأنها أصبحت مسلوبة الارادة تتحرك حسب مشيئتى . نظرت الى بطنها فتابعتنى وبدا الم خفيف على وجهها .. كنت أبطيء فتبطيء وأعجل فتعجل . أطلت النظر الى فخذيها البيضاوين المفتوحتين ، ادلكهما بعينى وينزلق نظرى على السطح الناعم الاملس الى ان يستقر هنالك فى مستودع الاسرار.، حيث يولد الخير والشر . ورأيت وجهها تعلوه حمرة ، وجفنيها ينكسران كأنها اصبحت غير قادرة على السيطرة عليهما .. رفعت الخنجر ببطء فتابعت حده بعينيها ، واتسعت حدقتا العينين فجأة واضاء وجهها بنور خاطف كأنه لمع برق . لبثت تنظر الى حد الخنجر بخليط من الدهشة والخوف والشبق . ثم أمسكت الخنجر وقبلته بلهفة . وفجأة اغمضت عينيها وتمطت فى السرير رافعة وسطها قليلا فاتحة فخذيها اكثر . وتأوهت وقالت : ارجوك يا حلوى هيا . انا مستعدة الآن . لم استجب لندائها فتأوهت آهة اكثر الما . وانتظرت . بكت . خرج صوتها خافتا لا يكاد يسمع : أرجوك يا حبيبى

« ها هى ذى سفنى يا حبيبتى تبحر نحو شواطيء الهلاك . ملت عليها وقبلتها . وضعت حد الخنجر بين نهديها ، وشبكت هى رجليها حول ظهرى . ضغطت ببطء . ببطء . فتحت عينيها . اى نشوة فى هذه العيون . وبدت لى اجمل من كل شيء فى الوجود . قالت بألم : يا حبيبى . ظننت انك لن تفعل هذا ابدا . كدت ايأس منك . وضغطت الخنجر بصدرى حتى غاب كله فى صدرها بين النهدين . واحسست بدمها الحار يتفجر من صدرها . واخذت ادعك صدرها بصدرى وهى تصرخ متوسلة : تعال معى . تعال . لا تدعنى أذهب وحدى

« وقالت لى : احبك ـ فصدقتها . وقلت لها : أحبك وكنت صادقا . ونحن شعلة من اللهب ، حواف الفراش السنة من نيران الجحيم ورائحة الدخان اشمه بانفى وهى تقول لى : احبك يا حبيبى ، وانا اقول لها : احبك يا حبيبتى . والكون بماضيه وحاضره ومستقبله اجتمع فى نقطة واحدة ليس قبلها ولا بعدها شيء » .

(١٠)

دخلت الماء عاريا تماما كما ولدتني أمي احسست برجفة اول ما لامست الماء البارد ، ثم تحولت الرجفة الى يقظة · النهر ليس ممتلئا كأيام الفيضان ولا صغير المجرى كأيام التحاريق · لقـــد اطفأت الشموع واغلقت باب الغرفة واغلقت باب الحوش دون ان افعل شيئا · حريق آخر لا يقدم ولا يؤخر · تركته يتحدث وخرجت لم ادعه يكمل القصة · فكرت ان اذهب واقف على قبرها · فكرت ان ارمي المفتاح حيث لا يجده احد · ثم عدلت · اعمال لا معنى لها ومع ذلك لابد من القيام بعمل ما · وقادتني قدماي الى الشاطىء وقد لاحت تباشير الفجر في الشرق · سأنفس عن غيظي بالســـباحة · كانت الاشياء على الشاطئين نصف واضـــحة ، تبين وتختفي ، بين النور والظلام · كان النهر يدوي بصوته القـديم المألوف ، متحركا كأنه ساكن · لا صوت غير دوي النهر وطقطقة مكنات الماء غير بعيد · واخذت اسبح نحو الشاطىء الشمالي · وظللت اسبح واسبح حتى استقرت حركات جسمي مع قوى الماء الى تناسق مريح · لم اعـــد افكر وانا اتحرك الى الامام على سطح الماء · وقع ضربات ذراعي في الماء ، وحركة ساقي ، وصوت زفيري بالنفس ، ودوي النهر ، وصوت المكنة تطقطق على الشاطىء · لا اصوات غير ذلك · ومضيت اسبح واسبح حتى استقر عزمي على بلوغ الشاطىء الشمالي · هـــذا هو الهدف · كان الشاطىء امامي يعلو ويهبط ، والاصوات تنقطع كلية ثم تضج · وقليلا قليلا لم اعد اسمع سوى دوي النهر · ثم اصبحت كأنني في بهو واسع تتجاوب اصداؤه · والشاطىء يعلو ويهبط · ودوي النهر يغور ويطفو · كنت ارى امامي في نصف دائرة · ثم اصبحت بين العمى والبصر · كنت اعي ولا اعي · هل انا نائم ام يقظان ؟ هل انا حي ام ميت ؟ ومع ذلك كنت ما ازال ممسكا بخيط رفيع واهن : الاحساس بان الهدف امامي لا تحتي ، وانني يجب ان اتحرك الى الامام لا الى اسفل · لكن الخيط وهن حتى كاد ينقطع ·

ووصلت الى نقطة احسست فيها ان قوى النهر فى القاع تشـدنى اليها • سرى الخدر فى ساقى وفى ذراعى • اتسع البهو وتسارع تجاوب الاصداء • الآن • وفجأة ، وبقوة لا ادري من اين جاءتنى ، رفعت قامتى فى الماء • سمعت دوى النهر وطقطقة مكنة الماء • تلفت يمنة ويسرة فاذا انا فى منتصف الطريق بين الشمال والجنوب • لن استطيع المضى ولن استطيع العودة • انقلبت على ظهرى وظللت ساكنا احرك ذراعى وساقى بصعوبة بالقدر الذى يبقينى طافيا على السطح • كنت احس بقوى النهر الهدامة تشدنى الى اسفل وبالتيار يدفعنى الى الشاطىء الجنوبى فى زاوية منحنية • لن استطيع ان أحفظ توازنى مدة طويلة • ان عاجلا أو اجلا ستشدنى قوى النهر الى القاع • وفى حالة بين الحياة والموت رأيت أسرابا من القطى متجهـة شمالا • هل نحن فى موسم الشـتاء أو الصيف ؟ هل هى رحلة أم هجرة ؟ وأحسست أننى أستسلم لقوى النهر الهـدامة • أحسست بساقى تجران بقية جسمى الى أسفل • فى لحظة لا أدرى هل طالت أم قصرت تحول دوى النهر الى ضوضاء مجلجلة ، وفى اللحظة عينهـا لمع ضوء حاد كأنه لمع برق • ثم ساد السكون والظلام فترة لا أعلم طولها ، بعدها لمحت السماء تبعد وتقترب والشاطىء يعلو ويهبط • وأحسست فجأة برغبة جارفة الى سيجارة • لم تكن مجرد رغبة • كانت جوعا • كانت ظمأ • وقد كانت تلك لحظة اليقظة من الكابوس استقرت السـماء واستقر الشاطىء وسمعت طقطقة مكنة الماء ، وأحسست ببرودة الماء فى جسمى • كان ذهنى قد صفا حينئـذ ، وتحددت علاقتى بالنهر • اننى طاف فوق الماء ولكننى لست جزءا منه فكرت اننى اذا مت فى تلك اللحظة فاننى أكون قد مت كما ولدت ، دون ارادتى • طول حياتى لم أختر ولم أقرر • اننى أقرر الان أننى أختار الحياة • سأحيا لان ثمة اناس قليلين أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن ولان على واجبات يجب أن أؤديهـا • لا يعنينى ان كان للحياة معنى أو لم يكن لهـا معنى • واذا كنت لا أستطيع أن أغفر فسأحاول أن أنسى • سأحيـا بالقوة والمكر • وحركت قدمى وذراعى بصعوبة وعنف حتى صارت قامتى كلها فوق الماء • وبكل ما بقيت لى من طاقة صرخت ، وكأننى ممثل هزلى يصـيح فى مسرح • « النجدة • النجدة » •

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٠٨٤/ ١٩٩٦

ISBN 977-01-4926-8

مكتبة الأسرة

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٦
جمعية الرعاية المتكاملة

بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

لم أصدق عينى وأنا ألتهم سطور هذه الرواية وأنتقل بين شخصياتها النارية العنيفة وأتابع مواقفها الحارة المتفجرة وبناءها الفنى الأصيل الجديد على الرواية العربية. لم أتصور أننى أقرأ رواية كتبها فنان عربى معاصر، ولم أتصور أن هذه [illegible] الفذة فكرا وفنا هى [illegible] أخذتنى الرواية [illegible] دوامة من السحر [illegible]، وصعدت بى إلى م[illegible] الخيال الفنى [illegible]، وأطربتنى طربا حقيقيا [illegible] غزارة شعرية رائعة.

Bibliotheca Alexandrina
1147719

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب.